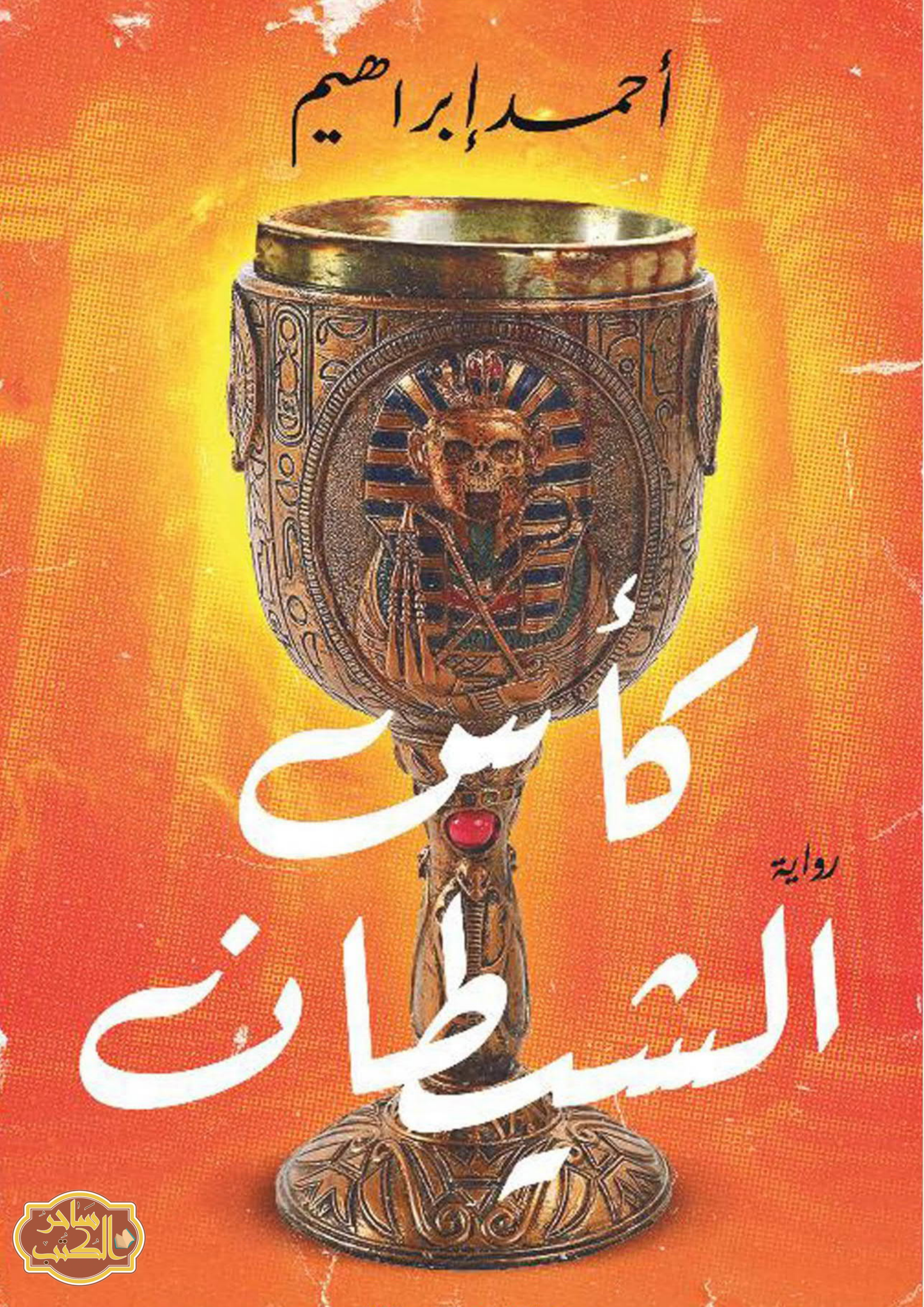

أحمد إبراهيم
كأس
الشيطان
رواية
ساحر الكتب

المقدمة

« ولدنا عرايا بدون خطايا كقطعة ثلج أبيض لا يشوبها شائبة حتى نمر بمراحل العمر ليصبح الاختيار متاح لنا وقطعة الثلج تذوب لتفصح عما بداخلنا من خير أو شر فأصبحنا مخيرين بين الأمرين، حينها يسطر القدر سطوره لحكايتنا وفي الآخرة يكون الحساب.

الكون الغامض هو منشأنا عالم واسع من القوانين تحكمنا، كل ما به مباح والبقاء للأقوى والأصلح الجدير بكنوزها ومقتنياتها المدفونة في أعماقها من أسرار وحكايات كنت أنا واحد منها، ما سوف تقرأه الآن ما هو إلا بداية قصة جديدة كنت أنا بطلها ومؤديها، فالبداية معي والنهاية لي لتصبح أوراقنا مكشوفة أمام الجميع فالخسارة غير مقبولة والفوز هو الغاية ، قانوننا هو قانون الغاب البقاء فيه لمن أمتلك زمام الأمور وسخر ما حوله لخدمته لهذا دعني أخوض معك في أعماقها وإظهار ما في جوفها لعلك تحكم عقلك وتختار أي من الفريقين تريد، فقانوننا ليس قانون الجسد والعضلات بل هو قانون العقل، ذلك الذي دمر من البشر وهوت بسببه عروش وممالك وضاع بسببه الكثير والكثير.

دعني أتحدث لك أكثر حين تقرأ سطوري فحينها أكون في عالم أخر قد سطرت حكايته بيدي كمركب بلا ربان أتأرجح

بين أمواج الدنيا العاتية في بحر واسع لا حدود له سمائه الظلام ولونه السواد، ذلك البحر الذي لم يشرق به شمس في يوم من الأيام حتى أصبح مقبرة كبيرة لا مهرب منها.

فمنذ أن وطأت قدماي تلك الدنيا لم أتعلم سوي الصمت ذلك السلاح القاتل الذي حير الكثير في أمري فجعل لوجودي هيبة لم يعهد لها بشري قط.

الفرح تلك الكلمة التي لم أعهد لها اتفاق معي منذ نشأتي طفلا صغيرا في كنف الراحة والسعادة حتى تبدل الحال فأصبحت ما أنا عليه الآن.

تعالوا معي لنري ما هي حكايتي وما هو السر الذي أخفيه عنكم؟، ليكون الحكم الأخير لكم».

***

الفصل الأول

جرح دامي

المكان: إحدى الأحياء الراقية بمدينة القاهرة -الساعة الرابعة عصرا.

بقصر ضخم تتوسطه بعض من الحدائق الخضراء كان الحاج محمود تاجر الأخشاب المعروف في أنحاء المدينة يجلس على أحد الكراسي وبجانبه زوجته الحاجة نعمات وخلفهم تلعب أبنتهم الصغيرة مريم بالحديقة، دخل أدم الابن الأكبر يلقي عليهم السلام طالبا من أمه أعداد طعام الغداء بسرعة لكنها ماطلت بعض من الوقت حتى ترك والده الجريدة قائلا « أنتظر يا بني فهناك زيارة قادمة لنا من البلد عمك وأولاده قادمون لتناول الغداء معنا ".

نظرت الأم لزوجها قائلة «لا أخفى عليك أشعر بالقلق الشديد من تلك الزيارات التي يقوم بها واحد من أخوتك كل فترة، فدائما تأتي معهم المصائب والطلبات التي لا تنتهي خاصة أختك الكبيرة شفاعة إن أتت فلا أتذكر رؤيتها سوي مرة واحدة طوال تلك الفترة، لكن أخبرني كيف لسيدة أن تحكم عائلة بأكملها على الرغم من تقارب سنكم؟».

ضحك الحج محمود وقبل أن يتكلم قال أدم لهم « لا يهم

لماذا يأتوا أو متى المهم أن يأتوا بالخير أما الشر فليأخذوه معهم ".

ضحك الحاج محمود اكثر موجها حديثه لأبنه وزوجته قائلا «تعرفون أن أصولي صعيدية من الجذور ولنا من العادات والتقاليد التي لا تناسب المجتمع المتمدين كالقاهرة وباقي المدن ولم أكن على وفاق مع تلك العادات لذلك رحلت عن قريتنا التي تحكمها الآن شفاعة كبيرة العائلة، أنتي تعلمين يا زوجتي أن عدد أشقائي سبعة من الذكور والإناث أكبرهم شفاعة ثم أنا وهي من تولت زمام العائلة بما أني هاجرت منذ زمن بعيد من قريتنا نازحا إلى الإسكندرية ومنها إلى قاهرة المعز ليصبح أنا ما هو عليه الحاج محمود تاجر الخشب المعروف لذلك يلجئون إلى في كافة أمورهم».

نظر له أدم وقد بدا على وجهه بعض من الغضب قائلا « لكن ليس كل زيارة يأتون لينالوا من أموالك ويستغلوا محبتك عند الناس ليقيموا مشاريعهم ومصالحهم فنحن أولى بذلك خاصة أن عمتي شفاعة هي من تحرك باقي أخوتك، أصبحوا كالكابوس في نظري لا أطيق سيرتهم أو زياراتهم الوهمية ".

نظر له الحاج محمود ببعض من الآسي قائلا « لكنهم في الأول والأخر عائلتي إخوتي من دمي فماذا تريدني أن افعل

يا بني دعها للخالق ولا تشغل بالك فكل الأمور محسومة ومحسوبة، أما الآن يا نعمات خذي مريم للطابق العلوي ولا تجعليها تهبط إلينا حتى يرحل الضيوف وتذكري ما أخبرتك به».

بدا الغضب واضحا أكثر على أدم حين نظر إلى والده قائلا « إلى متى سوف تظل تخفي مريم عن الأعين، أليس ذلك ظلما بينا لطفله لا يتعدي عمرها الستة أعوام؟».

نظر الحاج محمود إلى باب القصر الخارجي قائلا « ها قد أتوا فلتخبر أمك بأن تستعد ولتخبر من بالداخل بتجهيز طعام الغداء».

***

«حلم غريب يراودني منذ فترة كبيرة أنهض على أثره مختنقا وكأن هناك من لف حبل غليظ حول عنقي، أري فيه مكانا كبيرا كأنه صحراء قاحلة يتوسطها بيت ضخم من الخوص والطين يجلس أمامه والدي وأخوته ما عدا عمتي الكبيرة شفاعة وهم يتحدثون بلغة غير مفهومة ثم تظهر هي بمنظرها القاسي على الرغم من جمالها وسنها الذي لا يصدقه أحد تأمرهم بأن ينهضوا من أماكنهم لتشير بيدها إلى باب ضخم مدفون نصفه في أرض طينية ليفتحوه، ينهضون ليصطفوا صفين وخلفهم رجال ملثمين ليتجهوا إلى ذلك

الباب ثم يقفوا عنده في ثبات وجمود تام.

تقف خلفهم شفاعة قائلة « للمجد أتينا وللمجد نحن أهله، بقوة أهل الدار وببركة الشيخ السماوي وبكل أل بيته من مريدي أهل بيت العظيم الأكبر، فلتفتح لنا باب النجاة ولتلقي علينا بنورك كي تغمرنا السعادة الأبدية وللنعم بمقدساتك إلى أبد الآبدين، لتقبل قرابيننا ودمائهم الطاهرة لتروي بها أرضك ولينعم به أتباعك من بعدك يا صاحب المجد الأعظم».

فتنشق الأرض عن فتاة صغيرة لا أتبين ملامحها يحيط بها أربع رجال ضخام الجثة ملثمين الوجه ثم يحملونها إلى ذلك الباب تتوسل إليهم بصوت واهن ألا يقتلوها فمازال أمامها من العمر الكثير، من خلفهم تأتي شفاعة بسكين ضخم لتنحر عنقها في برود شديد مع صرخات تلك المسكينة الصغيرة ورائحة عطن تعم المكان ثم تتركها أمام الباب حتى يتحول إلى كتلة من اللهب، فأجد نفسي أقف في مواجهة عمتي التي تمسك بيدي لتضعها على ذلك الباب.

ثم أجد والدي يخر صريعا أمام عيني ولا استطيع الحراك وكأني مكبل بأغلال وصوتي غير مسموع ثم أجد شيخ باهت الهيئة متشحا بالسوداء يلقي بي لداخل ذلك الباب فأحاول جاهدا الصراخ ثم أفيق على أذان الفجر، حينها أقوم

مسرعا غير مصدق أني استيقظت من نومي حتى أصبح الأمر مزعجا للغاية لينقلب يومي رأسا على عقب بذلك الحلم وتتحول أحلامي بسببه إلى كوابيس».

***

وقف الحاج محمود وبجانبه أدم في استقبال أخيه إسماعيل وأبنائه الثلاثة مرحبا بهم في بيته لكن الأخر لم يتلفت إلى ذلك الترحيب وجلس على ذلك المقعد العاج بداخل القصر أمرا أبنائه بالجلوس فنظر أدم إلى أبيه الذي جلس بجانب أخيه مزايدا في الترحاب، نظر إسماعيل حوله ثم قال « بدون الإطالة يا محمود قد جئتك اليوم طالبا منك مساعدتي في أمر مهم من أجل أبنائي».

نظر له محمود قائلا « لك ما تريد يا أخي لكن نتكلم بعد الغداء و.....»، قاطعه إسماعيل في حدة قائلا «لا نريد شيء سوى مساعدتك وهو مبلغ مالي ضخم لإقامة مشروع في أحد المدن الساحلية لأبنائي خاصة بعد أن أصبحوا قادرين على العمل ومواجهة الحياة ولأجل أن أبعدهم عن قريتنا فلقد ضاق بنا الحال بسبب ما تفعله شفاعة وأنت أدري مني بها».

حينها نظر أدم إلى والده ثم عمه قائلا بصوت يملئه الحنق « نعم لا تأتون إلا من أجل جني الأموال التي أصبحتم

شركاء بها وتناسيتم رابط الدم بيننا ولا نراكم إلا في أوقات معينة، لم أري منكم أحد في يوم يدعونا لقضاء يوم معه أو على أحد الأفراح بالكاد أحفظ أشكالكم ولا أعرف من أنتم وأبنائكم و.......».

قاطعه الأب في حدة غير معهودة قائلا «أدم أحذر من كلماتك لا تتحدث بمثل تلك الطريقة في وجودي».

نظر له إسماعيل في برود شديد قائلا «يا أدم لا تتعجل فأجلا أم عاجلا سوف تأتي لزيارتنا ولتتعرف بعائلتك وما نطلبه من والدك هو محض حق ودين عليه».

نظر أدم بغضب له ثم ترك الجلسة صاعدا إلى الطابق العلوي قائلا «نعم أنه حق ودين عليه من سمح لكم بأخذ أمواله بدون وجه حق، لقد سئمت من هؤلاء الأشخاص وفي النهاية والدي يصرخ على من أجلهم».

وقف أدم حين فتح باب الغرفة فخرجت والدته مهرولة تسأله عن مريم وبدئوا في البحث عنها حتى دقت قلوبهم بشدة حين شاهدوها تجلس على رجل زوجها وهو ينظر لها ثم أرسل نظرة غضب واضحة إلى زوجته التي تعثرت على السلم حين هبطت لتأخذ مريم ملقية التحية على الحاضرين وتخبرهم بأنها أبنه أحد الجيران التي تركوها معها لحين عودتهم.

وقف أدم يراقب الموقف في صمت حتى لاحظ نظرات أبناء عمه للفتاة ببرود وريبة شعر وقتها بقشعريرة تسري في جسده حينها صرخ عليها بأن تصعد فورا إلى الطابق العلوي ولتترك الكبار في مجلسهم، فنظر له الأب نظرة نارية مطالبا زوجته بأن تأخذ مريم معها إلى الطابق العلوي.

نظرت له الزوجة بارتباك واضح على معالم وجهها ثم صعدت مسرعة وفي يدها مريم ثم دلفت إلى داخل الغرفة داعية ربها بأن لا يقوم الحاج محمود بمعاقبتهم.

***

دخل الحاج محمود إلى غرفة مكتبه بعد جلوسه لعدة ساعات مع أخيه وأبنائه ناظرا إلى الصورة الكبيرة الموجودة على الحائط لوالده قائلا « أي من الميراث تركته لنا سامحك الله يا والدي فكل ما أريد أن أنساه من ذاكرتي يأتي فجأة ليفتح جرح قديم لا أريده، فالماضي ذئب يفترس روحي كل فترة من الزمن حتى لا أظن أنه بقي من روحي شيئا سوي أشلاء، يا رب أنت اعلم بي من نفسي وأن اقترب لقائي بك اللهم لا تقبض روحي إلا وأنت راض عني وأغفر لي ما فات » ثم خرج من غرفته مناديا نعمات زوجته مطالبا إياها بالقدوم فورا.

حين هبطت إليه أشار لها بالجلوس قائلا « يبدوا أن ميراثي من والدي مازال يتجدد فأرجوا منك أن تنصتي إلى جيدا ولتعلمي أن خوفي عليك وعلى أولادنا هو من جعلني أقطع علاقاتي بأهلي في الصعيد خاصة شفاعة التي لا تعرف للرحمة عنوان ولا في قلبها أي نوع من أنواع الشفقة والإنسانية، أنصتي لي جيدا وأجعلي كلامي في ذاكرتك طالما حبيبتي «.

نظرت له الزوجة في حيرة فأمسك يدها وقبلها ثم وضع بها خاتم ومفتاح قائلا « ذلك الخاتم لأدم أما ذلك المفتاح فهو لغرفة في سرداب القصر إذا وافتني المنية اهبطي إليه كي تفهمي ما أريده منك يا زوجتي ورفيقة دربي».

هبطت بعض من الدمعات على وجنتيها قائلة « أخبرني بماذا تشعر ولماذا فتحت ذلك الباب مرة أخري الم نكن انتهينا منه؟».

نظر لها بعد أن قام للمرة الثانية بتقبيل يديها قائلا « هناك زيارة غير متوقعة لضيف ثقيل على قلبي أعلم أن نهايتها قد أوشكت ولذلك كان على أن أحملك تلك الأمانة وحين يشتد ساعد أدم أخبريه بما تريدي والآن دعينا ننل قسطا من الراحة كي يتسنى لي العمل وأخبري أدم أنه ذاهب معي للمصنع غدا».

***

الفصل الثاني

ميراث ملعون

المكان: إحدى القرى في أطراف الصعيد، منذ خمسة وثلاثون عاما الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

بداخل منزل ضخم في وسط القرية التي تحدها بعض من الأراضي الزراعية ومن بعدها واحة قاحلة تقف شفاعة الابنة الكبرى للحاج مرسي وبجانبها محمود وحولهم يجلس أخوتهم في صالة المنزل بالترتيب « هدي ومحمد وإبراهيم وإسماعيل وعوض »، كانوا في حالة جمود تام وكأن المنزل مقبرة منسية منذ مئات الأعوام حتى خرج من غرفة نوم أبيهم حكيم القرية قائلا «يا ست شفاعة الحاج مرسي يأمرك بإحضار أبنائه إلى الداخل فورا».

نظرت شفاعة في جمود واضح إلى محمود قائلة «الآن حان الوقت لمعرفة ما أريده لنأخذ حقنا من ذلك المكان اللعين وليصبح والدك في طي النسيان منسيا في قبره جزاء فعله».

نظر لها محمود في خوف واضح قائلا « الويل لنا من بعدك يا حاج مرسي، الودق قد عصف بعقل شفاعة و.............».

ابتسمت شفاعة ابتسامة سخرية قائلة « هل سنجلس اليوم في معرفة ما عصف بعقلي أيها التعس؟، هيا جميعا إلى غرفة أبيكم».

حين دلفوا جميعا إلى الداخل نظر الحاج مرسي لهم قائلا «منذ ما يقرب من ستون عاما كنت شابا يافعا أملك من الصحة ما لم يملكه غيري من شباب تلك القرية التي لم تكن بالمناسبة قريتنا أو موطننا الأصلي، حينها عثرت على ذلك الكنز الذي غير مجرى حياتي وأصبحت بين ليلة وضحاها حاكم لتلك القرية وقانونها الوحيد فيها هو أنا ومنعت ما منعته وسمحت بما يروق لي فأصبحت مملكتي الخاصة لا يستطيع أحد أن يتركها أو غريب يدخلها طوال تلك الفترة، لذلك يا محمود سوف تكون أنت كبير العائلة من بعدي وأن خالفت عهدي تصبح شفاعة هي من تتولى حكم العائلة والقرية، أعلم جيدا أنه بموتي سوف تغادر يا محمود ولكن بلعنة مني ومن بعدي بميراث الدم لهذا شفاعة أنت من تتولي حكم العائلة حتى يحين الموعد وينكشف المستور أما أن تعيشوا أسياد أو تموتوا عبيد مذلولين».

ثم أشار إلى صندوق معدني ضخم مكملا حديثه قائلا «يوجد سبع من اللفافات وكتاب مغلف بجلد حيوان الغزال شفاعة أنت المسئولة عنه ومن أراد أن يرحل ليأخذ لفافته

معه لكن ينتظر مصيره».

سكت صوت الحاج مرسي للأبد بعد أن ضرب البرق الشجرة أمام نافذة غرفته معلنه عن اشتعالها وسطوع نجم شفاعة بعد أن ذاعت الخبر في أرجاء القرية بموت الحاج مرسي وتوليها زمام أمور القرية والعائلة، في المساء تجمع أبناء الحاج مرسي في الدار بعد تلقي واجب العزاء فيه لتعلن لهم شفاعة عن القوانين التي سوف تحكم بها وعلى الرغم من جمودها وقسوتها أطاعها الجميع ما عدا محمود.

كان المنزل في حالة سكون تام حين نهض محمود من مكانه موجها كلامه لشفاعة قائلا « نريد تقسيم الميراث يا شفاعة، أريد نصيبي كي أرحل من هنا فكفى خمسة وعشرون عاما منذ ولادتي في ذلك المكان ولم أحقق أي شيء».

نظرت له شفاعة ثم لباقي الجالسين قائلة «أن الميراث ما هو في ذلك المكان قريتنا كما قالها أبي لك، أما أن تنعم معنا أو تذهب وحيدا ملعون بميراث الدم وخيبة أملنا فيك لهذا لا أريد الإطالة أذهب إلى ذلك الصندوق والتقط لفافتك ثم أذهب بلا رجعة فلا مكان لك بيننا، بالمناسبة أعلم جيدا أنك مدين لنا بكل ما سوف تجنيه فكن على استعداد لسد ذلك الدين».

نظر محمود لها ولأخوته ثم صعد إلى الطابق العلوي ليجمع أغراضه للذهاب من ذلك المكان بلا رجعة، بعد أن انتهى هبط إلى صالة المنزل فوجدها خاليه من شفاعة وأخوته ففتح الصندوق ثم نظر له بتمعن وعلى وجهه ابتسامة المنتصر حين التقط لفافة من اللفافات إلى جانب ذلك الكتاب ثم هرب مسرعا من المنزل.

على جانب أخر وقفت شفاعة تراقب أخيها الهارب بابتسامة جامدة من خلف زجاج نافذة غرفتها ثم استدارت متجهة إلى تلك المرأة الكبيرة الموجودة، تنظر إلى نفسها وهي تسدل شعرها الطويل بلونه الأسود الحالك قائلة « لتنعم بالثراء والراحة يا أخي الحبيب حتى يأتي موعد رد الدين ومنه لساعة الحق الأعظم التي سوف تحدد مصائرنا جميعا، فلم أضحي بالحياة من أجل لا شيء الجميل في ذلك الأمر أن جميع الأسرار التي أحتفظ بها أبي مخزنة في رأسي حتى يأتي وقتها، أما باقي أخوتي فهم من الآن إلى موتهم الدمى المتحركة بأمري، تلك الأرض ملكي بكنوزها وما تحتويه والصبر طيب إلى ميعادنا أخي الحبيب».

***

حين رحل محمود وحط بقدمه إلى مدينة الإسكندرية وجد عم سالم ذلك الرجل العجوز الذي هرب من ظلام القرية

وأهلها في انتظاره على وجهه ارتسمت ابتسامة الراحة والفرحة فلقد تحرر أخيرا من ذلك السجن المظلم الذي عاش فيه، احتضن محمود ذلك الرجل بشوق واضح قائلا «أخيرا قد منحت حقي في الحياة يا عم سالم لقد تحررت من سجن أبي، أصبح لي الحق في العيش وتحقيق أحلامي».

نظر له سالم قائلا «أهو محمد من تولي أمور القرية والعائلة؟».

نظر له محمود قائلا «بل هي شفاعة يا عم سالم».

تعجب الرجل من ما حدث قائلا «كيف يحدث ذلك في الصعيد، تتولي فتاة مقاليد حكم عائلة كعائلتكم إلى جانب حكم القرية كيف ذلك؟، لا أصدق ما تقوله؟».

« بل صدق يا عم سالم بدا الأمر كان مرتب من قبل والدي وشفاعة فتولت هي زمام الأمور حتى هي من سمحت لي الخروج لكن بدون عودة ثم أبلغتني عن دين في رقبتي وبعض من الكلمات الغير مفهومة، لقد تركت ميراثي لهم ولن أعود أبدا».

نظر له عم سالم ثم ربت على كتفه قائلا «دعنا من كل هذا الآن لنذهب إلى بيتي ثم نكمل حديثنا هناك».

بعد ربع ساعة وصلوا إلى المنزل بعد أن دعاه سالم إلى

الدخول، استراح محمود على الأريكة منتشيا وهو يقول « أتعلم يا عم سالم كثيرا ما كنت أتعجب من أسلوب والدي وطريقته معنا وكيف كان يميز شفاعة عنا بعد موت والدتي المفاجئ، كيف له أن يمنعني وأخوتي من أخذ حقنا في الميراث وترك الأمر لشفاعة؟».

نظر له سالم بعد أن أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة قائلا «أنت لا تعلم الكثير يا بني فشفاعة أختك حين كان عمرها عشرة أعوام كانت رفيقة دليلة الساحرة وأبنها مسعود الذي هرب من القرية بعد مقتل والدته على يد أبوك ورجاله بعد أن علموا بأنها تعلم أختك السحر، لكن من الواضح أنها شربتها ذلك السم حتى أصبحت خبيرة فيه وهو ما جعل لها مكانة خاصة عند والدك ورهبة كريهة عند أهل القرية، هي ثعبان بشري تجرعت سموم السحر وقذارة دليلة حين رافقت أبنها وتم الكتمان الأمر أنت نفسك لا تعرفه، هناك الكثير والكثير مما لا تعرفه».

نظر له محمود في تعجب ودهشة واضحة فأعتدل في جلسته قائلا « ماذا تقول يا عم سالم وكيف لك بمعرفة كل تلك الأمور على الرغم من ابتعادك عن القرية منذ أعواما كثيرة، هناك أمر غير مفهوم فأنا لم أسمع بأي شيء من ذلك أم تقصد أن تشوه سمعة أختي لدي؟».

وقف سالم مبتسما وهو يقول «أخبرني يا محمود متى جلست مع والدك في مجلس القرية أو تناقشت معه في أي من أمور الحياة، الم يكن مسعود زميل لك وكان يعمل معك في تلك الأرض الزراعية الموجودة خلف منزلكم أين هو الآن بعد موت أمه دليلة أمام عينيه على الرغم من أن والدك كان يباشر طالعه وحظه منها، مازلت صغير يا محمود لكي تعلم الكثير من خفايا قريتنا الملعونة، استرح حتى أتي بالطعام فغدا سوف نقابل الحاج عبد الرحمن الذي سوف تعمل معه في مصنع للأخشاب على أول مدينة الإسكندرية وتحتاج إلى الراحة لمقابلته».



الفصل الثالث

سكرات الموت والحياة

المكان : قصر الحاج محمود، الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

يدخل الحاج محمود إلى غرفة مكتبه مغلقا خلفه الباب بالمفتاح ثم يقف لعدة دقائق أمام صورة والده حتى ينزعها من الحائط ثم يضغط على الجزء العلوي منه ليفتح باب خفي يضاء بضوء خافت سلم يهبط إلى باب خشبي قديم، ينظر إليه ليقول «ها قد حان الوقت كي نفصح عن بعض من الأسرار التي عشت من أجل الحفاظ عليها لكن يبدو أن تلك الزيارة التي طالما تمنيت ألا تحدث قد حان وقتها في القريب، لذلك وجب على الاستعداد فالعمر قد أوشك على الانتهاء»، بعد أن فتح الباب صادرا صرير مزعجا تنهد ثم ضغط على قبس النور فكانت الإضاءة باهته بعض الشيء، أغلق الباب خلفه بعد أن دلف لداخل الغرفة ينظر لكل ركن من أركانها كانت هناك منضدة في المنتصف يوجد فوقها غطاء أسود عليه من الأتربة الكثير والكثير لكن من الواضح أنها تخفي تحتها أشياء.

اقترب محمود من المنضدة وأزال ذلك الغطاء الأسود

المليء بالأتربة مفصحا عما تخفيه، صندوق معدني متوسط الحجم بجانبه شمعدان نحاسي اللون وبعض من الشموع موضوعة على هيئة نجمة سداسية وعلبه كبريت، زفر في ضيق مشاهدا ما فوق المنضدة قائلا « أعلم أن الحرب مع شفاعة قد بدأت خاصة بعد أن اشتريت الثلاثة لفافات من محمد، إبراهيم، إسماعيل إلى جانب لفافتي وذلك الكتاب الذي لم أجرأ على فتحه لكن يبدو أن وصفة عم سالم سوف أحتاجها الآن فقد حان الوقت لرحيلي، فالأمانة قد سلمت لصاحبها أما اللقاء فهو حتمي لا مفر منه، لهذا تركت في مكتبي مفكرة صغيرة لأدم وزوجتي سوف أخبرها به صباحا».

قام محمود بإطفاء الكهرباء ليجعل المكان ظلام دامس ثم أشعل عود الكبريت ثم بدأ في إشعال الشمعدان إلى جانب تلك الشموع فهبت ريحا قوية معلنة عن قدوم كيان أسود ضخم يجلس على ذلك المقعد المقابل للمنضدة قائلا « مر زمن طويل يا محمود منذ أن عقدت تلك الصفقة معي».

نظر محمود لذلك الكيان الجالس قائلا «كنت أنعتك بالضيف الثقيل لكن لا مفر من ملاقاتك وفتح ذلك الجرح من جديد، فقلبي يحدثني بأن الوقت قد حان».

ضحك ذلك الكيان ضحكة رجت المكان قائلا «هذا هو

مقصدي أيها الأحمق لا مهرب لك من ذلك القدر المكتوب لك في صفحتك، هذه هي المتعة الحقيقية حين تجني ما زرعته بيدك وأنت زرع الشيطان يا محمود لذلك أخبرني بما تريده فالوقت يداهمك».

وضع محمود يده على الصندوق قائلا بحزم « لقد سلمت الأمانة إلى صاحبها وأعلم جيدا أن شفاعة على علم بكل ما أقوم به لذلك أريد الخلاص والعيش في سلام على الرغم من معرفة قدوم موتي في أي وقت إلا أني مازلت متمسكا بالحياة فأمامي الكثير لكي أفعله».

نهض ذلك الكيان الضخم مقتربا من تلك الشموع المشتعلة فظهر وجه شيخ عجوز باهت البشرة مرتديا حلة سوداء مغطيا رأسه قائلا بصوت غليظ «مازلت كما أنت لم تتغير حين عثرت على في ذلك المكان وطلبت مساعدتي لك في الهروب من القرية على الرغم من أني حارسها بل أعطيتك سبل للحياة وقوة لم تكن تحلم بها، عاديت قبيلة بني السماوي من أجل ما تخفيه أرضكم بل جعلتك تأخذ نصيبك من ميراث الدم حين خرجت منبوذ من أهلك جعلت بعضهم راكعين لك لاهثين وراء مالك، أصبحت تملك الكثير لكي تصل للكنز أو بمعني أصح من بعدك والآن تريد أن تعيش بسلام لا تستطيع يا محمود».

نظر له محمود بحزم وغضب واضح قائلا «لكن عم سالم قال لي أن قدري أستطيع تغييره أيها الأحمق، لقد أخبرني بالكثير عما بداخل قريتنا ولماذا قررت أنا الرحيل عنها وما كان يخفيه أبي عني وعن أخوتي».

ضحك الكيان بشدة قائلا «أحمق ومازلت أحمق على الرغم من كبر سنك لكنك مازلت كما أنت الشاب المتهور الذي أراد أن يعيش حياته بعيدا عن النعيم الذي تطأ عليه أقدامه فقرر الهروب لعيش الوهم في خياله، تركت الأمر لشفاعة التي شاهدتك من خلف نافذتها تهرب كالفأر بعد أن أخذت ما أخذته لأنها على يقين بعودة الضال منها، أما أنت تائها في دروب الظلام التي خضته بنفسك وما أكثر الحديث».

جلس محمود على الأرض في آسي واضح «كل ما كنت أريده حياة طبيعية كباقي البشر».

وقف ذلك الكيان الأسود قائلا «وماذا فعلت أنت؟، قررت أن تطلع للمزيد بعد أن حكمت على نفسك بالرحيل واستعنت بي من أجل تحقيق مرادك الغير مفهوم، أنت شخصية متناقضة تعيش على ماضي سطرت نهايته بيدك وحاضر نهايته قد كتبت لك ومازال ذلك الخيط مفقودا».

وقف محمود على قدميه ثم أشعل قبس الكهرباء لتنير المكان مرة أخري جالسا على ذلك المقعد يفكر فيما سوف

يحدث قائلا لنفسه بصوت مسموع «عشت في قريتي غريب وخرجت تائها وأموت وحيدا، من اجل لا شيء».

خرج من ذلك السرداب فأغلقه خلفه ثم صعد إلى أعلى حين وجد نعمات تجلس على الأريكة يظهر على وجهها الحزن الشديد، نهضت وأدارت ظهرها ناحية الباب للخروج فأوقفها قائلا «تريثي قليلا يا أم أدم فربما يكون أخر لقاء لنا وأريد أن أقص عليك شيء هاما كي تعرفي ماهية ما أنت مقدمة عليه».

لم تهتم نعمات بكلام زوجها فخرجت مسرعة إلى غرفتها فوقف حزينا في منتصف صالة القصر قائلا لنفسه «ويلا لي فلقد دمرت حياتي بيدي، يبدو أن ذلك الضيف على حق فأنا الآن متخبط أعيش الحياة ونقيضها».

دلف مرة أخري إلى داخل المكتب جالسا على المقعد ففتح أحد أدراج المكتب ممسكا بمفكرة كبيرة فأخذها ثم غادر صاعدا إلى غرفته، بعد أن دخل على زوجته فوجدها مستلقية على السرير تغط في نوم عميق فتعجب كيف لها أن تنام بتلك السرعة وما طرحه عقله هو كيف لها الدخول إلى المكتب وهو مغلق بالمفتاح؟.

كانت الساعة السادسة صباحا فوضع المفكرة بجانبها ثم قبلها على رأسها وارتدى ملابسه للخروج، حينها قرر أن يلقي

بنظرة أحس أنها الأخيرة على ولده وأبنته قائلا «لتغفرا لوالدكم ذلك الذنب فلقد عاش مشتتا على الرغم مما هو فيه من النعم فقرر حينها إغلاق بوابات الماضي ومعالجة تلك الجروح الأبدية، لكن على ما يبدو أن دماء الشيطان تسري في عروقي فجعلتني أنبش الماضي وأعجل بقدوم ذلك الضيف، لا يهم فأني أعتمد عليك يا بني أن تنهي ميراث الدم ولتنعم أنت ووالدتك وتلك الصغيرة المسكينة بالنعيم الأبدي»، ألقى عليهم تلك النظرة الحزينة ثم هبط مسرعا إلى خارج القصر راكبا سيارته متجها إلى المصنع.

***

الساعة الثانية عشر ظهرا حين دق هاتف أدم فنهض بصعوبة ممسكا به ثم أجاب في صوت يملئه النوم، على الطرف الأخر هناك صوت أجش يخبره بأن والده الحاج محمود قد توفي في حادث سيارة وأن جثمانه متواجد بمشرحة زينهم فلم يتمالك أدم أعصابه فصرخ على والدته التي وجدها تقف على الباب في جمود قائلة « البقاء لله يا بني قم وجهز والدك لدفنته وانا سوف الحق بك بعد أن أبلغ الجميع».

تعجب أدم من ردة فعل والدته البارد فقام على الفور بارتداء ملابسه والذهاب على الفور إلى المشرحة، حين

وصل وسمحوا له بالدخول وجد جثة والده متفحمة فبكي بحرقة عليه حتى أتي واحد من موظفين مصنع والده بتصريح الدفن، مرت ساعتين بعد الدفن حتى أتي صديق قديم لوالده إلى القصر يخبره فيها بضرورة إقامة العزاء في منطقتهم بالسيدة زينب فلم يهتم أدم بكلامه وغادر المكان فلحقته والدته وأخبرته بضرورة موافقته على ما قاله صديق والده خاصة أن منزلهم القديم هناك، كان أدم مشتت الذهن مشلول الحركة لم يستطع سوي تحريك رأسه بالموافقة على أي شيء، نظرت له والدته في أسي بالغ ثم تركته جالسا على ذلك المقعد الذي كان يجلس عليه والده.

***

في تمام الساعة السادسة مساءا بحي السيدة زينب كان العزاء مقاما بطول الشارع أمام المسجد وقف أدم حزين الوجه بجانبه أعمامه الخمس يرتدون ذلك الجلباب الصعيدي ولهجتهم تدل على أصولهم يستقبلون المعزيين من كل حدب وصوب فمن مات كان واحدا من أكبر تجار الخشب في مصر وكان رجل ذائع الصيت معروف بدماثة الأخلاق والكرم، الكثير من المعزيين كانوا يبكونه ويترحموا عليه ويذكروا محاسنه فموته أثر في نفوس الكثيرين، وقفت سيارة سوداء اللون أمام العزاء مباشرة ليهبط منها رجل

ضخم الجثة قمحي البشرة يتحرك بخطوات ثابتة نحو الباب الخلفي للسيارة فيفتحه ليخرج منها شيخ طويل القامة أبيض البشرة له ذقن بيضاء مهذبة وبيده سبحه كبيرة بعض الشيء يمشي في خطوات ثابتة ومن خلفه ذلك السائق يلقون بالتحية وواجب العزاء لأدم ومن معه فيجلس وقتا طويلا وقبل أن تنتهي مراسم العزاء يربت على يد أدم يخبره بأنه يريده على انفراد لدقائق فسار معه أدم بدون كلام.

نظر الرجل لأدم قائلا «البقاء لله يا بني في والدك الحاج محمود ذلك الرجل التقي النقي كان نعم الأخ والصديق، انا الحاج عبادة صديق الوالد أن أردت أي شيء هذا هو الكارت الخاص بي به جميع أرقامي فلا تتردد».

نظر له أدم في أسي وإجهاد واضح شاكرا له على حسن خلقه معه ثم تركه عائدا إلى ذلك البيت ليأخذ والدته وأخته إلى القصر بعد أن انتهت مراسم العزاء، نظر إلى أعمامه وأولادهم ثم غادر المكان بعد أن هبطت والدته ليصطحبها.

***

الفصل الرابع

من خبايا الماضي

المكان: حديقة قصر الحاج محمود، الزمن: الساعة العاشرة صباحا.

مازال الحزن مخيما على أرجاء المكان وقاطنيه بعد مرور ثلاثون يوما من وفاة الوالد مشتتين تائهين في عالم غير الذي يعيشون فيه، أسئلة كثيرة تطرحها عقولهم ولا إجابة لها خاصة أدم التي لاحظت أمه ذلك على قسمات وجهه، كلما مرت من أمام شرفة القصر وجدته جالسا على مقعد والده بالحديقة حتى قررت النزول إليه والتحدث معه لعلها تجد ما يبرد نار قلبها حزنا على رفيق العمر حينها قررت أن تأخذ تلك المفكرة السوداء التي تركها لها قبل موته لتعطيها لأدم.

ربتت على كتفه قائلة «ليس من عادتك أن تستيقظ مبكرا يا أدم هون عليك فما هو قادم يحتاج منك أن تقف صلبا متماسكا، أصبحت أنت المسئول عنا وعن شؤوننا».

نظر لها أدم في أسي قائلا «كيف لي أن أقف صلبا بعد أن ذهب معني حياة أسرتنا وأساسها، أصبحت مشتتا أفكر فيما سوف يحدث خاصة أن عائلة والدي كما تعلمي لا أطيقهم ولا أعرف ما سوف أفعله معهم؟، كانوا يأتون إليه وهو حي

ليطالبوا بالأموال بأسلوبهم البارد ومعاملتهم الجافة القاسية أما الآن لا أعلم ما سيفعلونه معنا!».

نظرت له بحيرة بدا على قسمات وجهها قائلة « أهذا كل ما يقلقك يا بني؟».

نظر لها بتعجب وحزن قائلا « أهناك شيء يقلق غير ما قلته يا أمي؟».

أمسكت المفكرة السوداء ملقية بها على الطاولة الصغيرة قائلة « عم هناك ما يقلق أكثر مما تتخيله لهذا أقرأ تلك المفكرة فهي تخص والدك لعلك تفهم ما أريد أن أخبرك به».

أمسك أدم تلك المفكرة متفحصا لها ثم نظر إلى أمه قائلا «ما فحوى تلك المفكرة ولماذا تريدين مني أن أقرأها؟».

كانت تعلم جيدا أن من أهم صفات أبنها المجادلة فتنهدت قائلة «أقرأها ثم لنا حديثا مطولا بعدها» حينها نهضت من مكانها متجهة إلى داخل القصر حين شاهدت مريم تبحث عنها، فتح أدم تلك المفكرة ثم بدأ يقرأ ما بها.

***

«ما أصعب أن تعيش وحيدا في وسط غابة من البشر لا تعرف للرحمة عنوان ولا يوجد في قلبها أي معنى من معاني

الإنسانية، حياة قاسية وواقع مرير حين تجد نفسك محاطا بشياطين الأنس بل الأغرب إنهم من دمك دم الشيطان كما أطلق علينا من قبل أهل القرية ، لا أخجل من قول ذلك فأنا من نسل موسى أبو العلا الذي أشبعنا أنا وإخوتي بقسوة القلب الباردة التي طالما تمنيت أن أتخلص منها، والدي الذي جاء من لا شيء ليصبح واحدا من أساطير قرى الصعيد النائية التي ليس لها قوانين تحكمها، أمي تلك الغجرية التي توفت لأسباب غامضة لست من الأشقاء غريبي الأطوار لا يحملون سوي ما زرعه والدي بهم من قسوة ودم بارد، أهالي القرية الفقراء الذين عانوا الجهل والفقر والمرض المغموسين بدماء العبودية التي زرعها والدي فيهم يحيطهم ذئاب القرية من الهباشين وتلك العرافة التي عصفت بقريتنا منذ أن خطت قدماها أرضنا إلى يوم مماتها، كنت أتمني يا أدم أن أطلعك على كل شيء منذ ولادتك لكني كنت أجنبك الكثير من الويلات التي كنت ستعيشها أن فهمت الحقيقة كاملة في سن صغير، لذلك كانت أمك هي كاتمة أسراري وخزينتي الخفية التي طالما حفظت فيها الكثير من الأمور التي صعب أن أبوح بها لأحد .

كانت نشأتي أنا وأختي شفاعة قاسية لأقصي درجة ومن بعدها أخوتي فكان والدي ذو بطش شديد قاسي القلب لا يعرف للرحمة عنوان، كان أسهل ما عنده هو القتل بدم

بارد وهو ما حكم به قريتنا إلى مماته فظن أهل القرية أنه الخلاص لكنهم وجدوا شفاعة أختي هي من تحكمهم كاسرة للعادات والتقاليد في أراضي الصعيد، ورثت من والدي كل ما تتخيله من سوء الصفات وأقذرها تتعلم السحر من دليلة العرافة وتتقنها ولم نكن نعلم لماذا تتعلم ذلك السحر إلى أن أصبحت تتفوق على معلمتها، إلى جانب ذلك أنها كانت غانية تضاجع الرجال من أجل سبب غير معلوم ثم تقوم بقتلهم الوحيد الذي لم تستطع قتله كان مسعود أبن دليلة العرافة التي ربطتهم علاقة غير شرعية وقام والدنا على أثرها بقتل دليلة بعد هروب مسعود لكن العجيب أنه لم يعاقب شفاعة كما كنت أتوقع أما هي فكانت في حالة لا مبالاة، كنت بعدها قد قررت أن أهرب من القرية حين تتاح لي الفرصة.

أرى على وجهك قسمات حيرة وضجر لكن تمهل وأقرأ جيدا، حين أصبحت رجلا يافعا كنت أتولى زراعة الأرض المجاورة لبيتنا أنا ومسعود فوالدي كان يرفض أن يتولى أمر الزراعة واحد من أبناء العبيد كما كان يطلق عليهم، لهذا توليت أنا الأمر وفي يوم مشرق ضربت الأرض بالفأس ضربة قوية كسر على أثرها يد الفأس الخشبية حينها أنتبه لي مسعود فركض اتجاهي مستفسرا عما حدث، نظرت إلى الأرض فوجدت مسعود يبتسم ثم بدأ في الحفر حتى أخرج صندوق صغير الحجم أسود اللون مغطى بتراب الأرض

فأعطاه لي، تعجبت من فعلته فكنت أظن أنه سيأخذه مني لذلك تلفتنا حولنا ثم أخفيناه وأكملنا عملنا بعد أن اتفقنا أن نتقابل في المساء بالقرب من بيته على أطراف القرية، من هنا بدأت اللعنة حين عقدت صفقتي مع الشيطان فانقلبت حياتي رأس على عقب وتوالت الأحداث.

في أحد الأيام قبل وفاة والدي بسنة كان الجو ملبد بالغيوم ممطرا مياه أشبه برصاص الحرب كان والدي يجلس في ردهة البيت ليلا حتى جاءه زائر غريب الشكل طويل القامة يتشح بالسواد ملثم لا يظهر منه إلا عينيه يحمل صندوق ضخم لا يقوى على حمله سوي أربعة أشخاص مفتولي العضلات، كان والدي قبلها قد نبهني أنا وأخوتي ألا نهبط حين يأتي ذلك الزائر لكن الوحيدة التي لم تلتزم بالكلام كانت شفاعة التي ظلت تراقب والدي وذلك الزائر الذي أنتبه لوجودها، في تلك الليلة قصت علينا شفاعة ما سمعته من ذلك الزائر حول باب الحياة الذي يوجد بداخله ما لذ وطاب لنا ولمن بعدنا فجاء في مخيلتي أن المقصود هو أموال أو ذهب لكن حين لمعت عينا شفاعة وهي تخبرنا بأن الميراث مقسم لعدة أقسام علمت أن هناك سرا فما هو باب الحياة الذي دفع فيه أبي جميع أمواله من أجل الحصول على ذلك الصندوق.

حين أصاب المرض والدي وجمعنا بدأ يهذي لنا بكلمات غير مفهومة عن باب الحياة والسبع لفافات وذلك الكتاب الغامض، حينها وجدت شفاعة تخبرنا بأن نخرج من الغرفة لكي يستريح والدنا بعد أن أعلن تولي شفاعة زمام الأمور ليقينه التام بهروبي ولا أعلم كيف عرف بسر هروبي !، سمعتها تقول لوالدي عن محتوي الصندوق وماذا سوف تفعل به حين يموت وقتها شعرت بثقل في قدمي حين فتحت باب الغرفة ببطء شديد ووجدت شفاعة تقتل والدي خنقا ثم تخرج لتنتظر معنا فيدخل الحكيم ويخرج معلنا عن موت الحاج مرسي وتولي شفاعة الأمر من بعده ثم تفرقنا حين هربت من القرية وعشت حياتي كما لو كنت إنسانا جديدا لكن الماضي ظل يطاردني فجعلتني أنبش في قبره حتى تبين لي الحقيقة كاملة والتي من الصعب سردها لك في تلك المفكرة.

سبع لفافات عددنا نحن كأخوة، كتاب مجهول المصدر مغلف بجلد حيوان الغزال ولعنات أصابتني جعلت مني مشتتا، ضيف ثقيل يأتي لحصد ما جنيته في السنين سابقة، أسطورة باب يسمي الحياة التي خطها لنا والدي حيث ترك لنا ما بقي من ميراث الدم، كيان ضخم يراقبنا وحية كبري تلدغنا، عقارب سامة في الطريق وقلب مات منذ عقود، محرمات كثيرة وأسئلة لعينة كان حلها أنت يا أدم.

استمع إلى والدتك جيدا وأحفظ كل ما تقوله لك ثم أذهب إلى الشيخ أبو العبد فمعه مفاتيح البداية فقريب منك لكن غائب عن ذهنك وكن مستعدا فالمعركة قد بدأت.

السلام ختام لك ولذريتك من بعدك.....

والدك محمود ابن مرسي».

***

أغلق أدم المفكرة متعجبا لما فيها فنهض مسرعا ممسكا بها متجها إلى داخل القصر حتى أستوقفه صوت يأتي من سيارة سوداء خارج سور القصر يطلب منه الأذن بالدخول حينها خرجت والدته أمام باب القصر تنظر إلى البوابة فنظر لها مستفسرا عما يحدث فتنظر إلى الحارس تأمره بإدخال تلك السيارة في موقف تعجب منه أدم كثيرا.

***

الفصل الخامس

حكاية لم تروي بعد

المكان: قرية نائية في أقصي الصعيد، الزمان: في الماضي البعيد.

كانت القرية تعج بالساكنين الذين يمتهنون الزراعة والتجارة في ذلك المكان حين كان يحكمهم الشيخ عبد الله الذي أحبه الجميع لدماثة أخلاقه وكرمه ، كان يوم الجمعة يوم السوق المعروف للقرية والقرى المجاورة حيث كانوا يتاجرون فيما بينهم، حط ذلك الشاب طويل القامة قمحي البشرة ذو جلباب ممزق بعض الشيء الرحال على تلك القرية ومعه شابان توأمان هزيلا الجسد متوسطا الطول تميل بشرتهما للسمار إلى القرية حين بدأ التجول في سوقها، كان الأمر طبيعي حتى على صراخ بائع ممسكا بأحد الشابين الهزيلين متهما له بالسرقة فتجمع كل من بالسوق حولهم فبدأ بعض البائعين بضرب ذلك الشاب، أشتبك معهم الثلاثة شبان على الرغم من مظهرهم إلا إنهم اظهروا بأسا شديدا تعجب له جميع من بالسوق حتى وصل الشيخ عبد الله ومعاونيه مطالبين الجميع بالتزام الصمت، شيخ تعدي الثمانون من عمره يحيط به مجموعة من الرجال أمر

باصطحاب هؤلاء الغرباء الثلاثة إلي منزله في وسط القرية.

بالقرية الكثير من المنازل خلف كل منزل أو بجانبه أرضا خضراء إلي أخر القرية التي يحدها واحة قاحلة كئيبة المنظر، دخل الشيخ عبد الله إلى منزله وخلفه رجاله مصطحبين هؤلاء الغرباء حينها جلس على مقعد خشبي في وسط ساحة المنزل ناظرا في ابتسامة خفيفة أمرا الجميع بالجلوس ما عدا الثلاثة غرباء.

« أخبروني من أنتم ولماذا جئتم إلى هنا؟».

ساد الصمت لعدة دقائق في ذلك المجلس إلى أن تحدث ذلك الشاب طويل القامة قائلا «جئنا باحثين عن لقمة عيش وحياة كريمة فنحن رحالة ليس لنا مكان ثابت نعيش فيه، لقد أنهكتنا الحياة بما فيه الكفاية فقررنا أن نأتي هنا لنجد أي وسيلة نحيا بها حياة كريمة».

نظر له الشيخ قائلا «أتجدون حياة كريمة في السرقة، أتظن أن تلك بداية مبشرة!».

جلس ذلك الشاب على الأرض أمام الشيخ قائلا «يا شيخ من الحاجة لا أكثر وهؤلاء الفتية هم بكم لا يتكلمون فكان الجوع يقرص بطوننا التي لم يدخلها الزاد منذ أيام».

أبتسم الشيخ ناظرا إلى المحيطين به ثم نظر إليهم قائلا «

أهلا بكم في قرية الخير فمن الآن وصاعدا سوف تعملون في أرضي وتبيتون في دار ملكي لم يدخلها أحد منذ سنين أخر القرية خلفها تلك الواحة القاحلة، لكن أخبروني ما أسمكم؟».

حينها صرخ أحد الحاضرين على الشيخ عبد الله قائلا «يا شيخ كيف تطمئن لهم فهم رحالة لا أرض ولا أهل لهم ولائهم لصاحب العز الأكبر ولا مانع لديهم في أن يبيعوا أنفسهم لمن يدفع أكثر، لأول مرة لا أتفق معك يا شيخنا في كلامك وقرارك». صدرت أصوات كثيرة من الحاضرين مؤيدة لما قاله حتى وقف الشيخ عبد الله أمامهم قائلا «هذا قراري وأنا المسئول عنه، فمن الآن هم من أبناء قرية الخير».

صمت الحاضرين جميعا ثم أمرهم بالانصراف ناظرا إلى الغرباء قائلا بابتسامة خفيفة «لم تخبروني بأسمائكم!».

قال له الشاب طويل القامة «اسمي هو موسى أما هؤلاء راشد ورشيد التوأم».

ضحك الشيخ عبد الله لهم قائلا «نعم لاحظت ذلك أنتم من اليوم أبنائي، أرجوا ألا تخيبوا نظرتي وثقتي فيكم».

ثلاث سنوات عاشوها في كنف الشيخ عبد الله وأهل القرية الذين ما اعتبروهم سريعا من أبنائهم فسارت الأمور طبيعية حتى جاء موعد السوق يوم الجمعة حين جاء

بعض من الغرباء الملثمين يتجولون بين الباعة كانوا عشرة أفراد يمشون في خطوات ثابتة مع بعض، مر على وجودهم ساعتين حتى بدأ واحد منهم في الشجار مع أحد الباعة بالقرب من مكان وجود موسى بجانبه راشد ورشيد اللذان تحركا ناحيتهم سرعان ما اندلعت مشاجرة كبيرة شارك فيها الجميع ضد الغرباء اللذين اسقطوا الجميع ، ظهر الشيخ عبد الله أمرا الجميع بالتوقف لكن واحدا من الغرباء الملثمين عاجله بضربة من الخنجر أصابته في مقتل فخر صريعا ثم هربوا من المكان بعد أن التف الجميع ناحية الشيخ الصريع، كان يوما حزينا على القرية وأهلها بما فيهم موسى وأتباعه لقد قتل الشيخ بلا ذنب فتم دفنه في جبانة القرية التي تبعد عنها بخمسة كيلو متر فبعد مراسم الدفن خرج من الجموع شاب متوسط القامة أبيض البشرة يشبه كثيرا لوالده الشيخ عبد الله أسمه مراد حينها بايعه جميع أهل القرية على أن يتولى زمام الأمور مكان والده لكن هذا لم يعجب أحد الحاضرين الي جانب موسى ورفقته.

***

عام كامل من الحزن مر على القرية بعد وفاة كبيرها وتولى أبنه من بعده الذي أساء الحكم والتصرف فأصبحت الفوضى تعم المكان بعض الشيء، ضجر سكان القرية من

تصرفات مراد فبعد عدة محاولات لقبح جماع غضبهم ثاروا عليه لعلهم يرجعوا إلى سابق عهدهم أبان حكم الشيخ عبد الله، كان موسى ورفقته هم أوائل الثوار الذين أطاحوا بابن الشيخ ووضع مكانه أحد الحكماء حينها ذاع صيتهم أكثر وأحبهم جميع من بالقرية.

في أحد الأيام قرر موسى ورفقته أن يذهبوا ليلا إلى تلك الواحة القاحلة خلف قريتهم لاستكشافها حين وصلوا إليها وجودوا بانتظارهم عشرة رجال ملثمين يقفون في منتصف الواحة ينظرون إليهم، دب الرعب في قلب راشد ورشيد فنظروا الى موسى الذي وجدوه يتقدم بخطوات ثابتة نحوهم مرحبا بهم فوجدوهم ينحنوا له بطريقة جعلت نظرات الشك والريبة وتساؤلات لا حصر لها في أعينهم، بحركة درامية التفت لهم موسى قائلا « تريدون معرفة الحقيقة؟».

في صوت واحد يملئه القلق قالا «ماذا يحدث؟ أليس هؤلاء من قتلوا الشيخ عبد الله؟، أخبرنا يا موسى ماذا تخفيه عنا؟».

ارتسمت ابتسامة شيطانية على وجه موسى الذي قال «في أحد الليالي قبل وفاة الشيخ بأسبوع كنت قد رأيت حلما عجيبا وغريبا لكني قمت من نومي مسرورا به مال

وجاه وسلطة إلى جانب قوة لا تضاهيها أي قوة في العالم، رأيت نفسي أمام باب معدني ضخم مصنوع من الذهب الخالص وحولي هؤلاء الرجال الملثمون خنجرا سميكا أمسكه بيدي بجانبي يقف كيان أسود ضخم لشيخ شاحب الوجه يأمرني بأن أقدم القرابين استعدادا لملاقاة الخلود، وجدت الشيخ عبد الله وأبنه مراد و...........».

تراجع الأخوين إلى الخلف ببطء شديد قائلين « ماذا تريد أن تقول؟». حينها وجدا العشر رجال الملثمين يحيطون بهم مقيدين حركتهم فأخرج واحدا منهم خنجرا معدنيا سميكا قائلا «يقرؤك الشيخ السماوي السلام ويطلب منك تقديم القربان». ثم امسكوا برأسهم بقوة بعد أن كمموا أفواههم، على الفور استل موسى السكين فذبح الاثنين كالشاه فخرا صريعين على الأرض تسيل منهم بركة من الدماء تتشربها الأرض بسرعة شديدة، ما هي دقائق معدودة حتى لفظت الأرض صندوق أسود صغير حينها اصطف الرجال الملثمين صفين فقال واحدا منهم « الآن تملك القوة السوداء لشيخنا السماوي قوة شيطانية سوف تكون عنوانك الي مماتك لك ولنسلك من بعدك دماء الشيطان تسرى في عروقكم حكم أبدى لا يزول عبيد تحت أقدامكم لتحكموهم بما تسول لها أنفسكم قانونكم النار والدمار، لكم من سحر الدنيا ما هو أسود قاتم لا ينفك إلا بدماء طاهرة نقية وهذا ما جاء

في رسالة شيخنا لك، أحكم بما تريده وسن قوانينك بيدك فالقرية أصبحت مملكتك لا خروج منها ولا دخول لغرباء »، ففي لمح البصر أختفي الملثمون من حوله وجثث رفقته فبقي هو والصندوق وحدهم فرجع إلى بيته على أذان الفجر في القرية ثم خلد للنوم.

في صباح اليوم التالي أستيقظ مرسي على صوت عالي وجلبة قوية فنهض من مكانه مسرعا يطمئن على الصندوق، حين أطمئن خرج فوجد أهالي القرية متجمعين ناحية الواحة القاحلة ليجد جثة رفقائه مصلوبة أمامهم، حينها سارت القرية بوشاية من موسى الذي كان يتمتع بمحبة أهل المكان جميعا الي منزل كبير القرية فقتلوا الشيخ جليل المسكين الذي لم يمهله القدر ليحكم القرية بعد مراد، تولى وقتها موسى زمام الأمور إلى أن أصبح هو حاكم القرية فسن القوانين الخاصة بها « الكلمة الأولى والأخيرة لي » فمنع دخول الغرباء وخروج أهل القرية بل أوقف حركة السوق التجارية يوم الجمعة فكان الاكتفاء ذاتي بما تنجبه القرية من خيرات، العجيب في الأمر أن أهالي القرية كانوا خاضعين بطريقة تثير عدة تساؤلات.

مرت سنوات حتى شاهد موسى تلك الفتاة الغجرية الصغيرة فأعجب بها فسرعان ما تزوجها وأنجب منها خمس

فتيان وفتاتين بالترتيب «شفاعة، محمود، هدي، محمد، إبراهيم، إسماعيل، عوض»، في احد الليالي بعد ولادة عوض بأسبوع طلب موسى من زوجته أن تتبعه إلى الواحة القاحلة خلف منزلهم الذي بناه من جديد وجعله مكان بيت الشيخ عبد الله القديم فتتبعته حتى وصلت لمنتصف الواحدة فأخرج ذلك الخنجر الذي قتل به رفقائه فجذبها من شعرها بقوة ونحر عنقها لتسيل دمائها لكن تلك المرة ابتلعت الأرض الجثة بالدم، ضحك موسى بشدة قبل أن تتوقف ضحكاته بصوت جهوري مصاحبة لها ضحكة شيطانية تقشعر لها الأبدان قائلا من وسط الظلام « تلميذ نجيب لشيطان الجحيم حقق الرؤية كما شاهدها، قلب انعدمت منه الرحمة والإنسانية إلي جانب أنك حاكم قوي تسوق عبيدك بمنتهى الحرفية والإتقان، لكن أخبرني يا موسى لماذا تفعل كل هذا؟ بالمناسبة لا تكذب على فأنا قارئ جيد للأفكار فمثلك أفكاره معروفة لكن أنت تختلف».

بصوت يملئه الثقة والغرور قال موسى لذلك الكيان «بالطبع مختلف فأنا واحدا من الرحالة لا أرض لي ولا أهل، فهل تظن أن ولائي سيكون لأحد؟ لا أظن ذلك فولائي هو لنفسي ثم نفسي فقط، منذ سنوات كنت في أحد الطرق الصحراوية حين عثرت على خيمة مهجورة فدخلت لأستريح بها فوجدت نفسي أدخل في نوم عميق ثم أستيقظ

على ثعبان يزحف على جسدي، كان أمرا عاديا لكن الغير مألوف هو أن أجد ورقة من جلد حيوان الفهد مكتوب عليها من الخير الى الشر أتينا ومن النور الى الظلام نحيا، لم أهتم بتلك الورقة فألقيتها وأكملت نومي فوجدت فيها أن أذهب إلى قرية الخير ففيها كنزا عظيم وخلود أبدى لي ولمن بعدى سرت في طريقي فتعرفت على راشد ورشيد ثم حطت رحالنا على القرية، تلك هي القصة ببساطة».

بصوت جهوري قال ذلك الكيان لموسى الذي ظل ثابتا في مكانه «تعلم جيدا أن دماء الشيطان تسري في جسدك ونسلك من بعدك فلا تراجع لما هو قادم، في وقت ما سوف أكون ضيفك لأسلم لك الراية وأخذ منك الأمانة فاستعد».

اختفي ذلك الكيان فأدار موسى ظهره قائلا «في الانتظار يا سماوي، أنا في الانتظار».

***

الفصل السادس

ما بين الواقع والخيال

المكان: حديقة القصر، الزمن: الثانية عشر ظهرا.

بعد أن هبط شيخ مسن متوسط القامة محني الظهر يزين وجهه لحية بيضاء خفيفة من السيارة يتكئ على عصا خشبية متقدما الي مجلس أدم بالحديقة الذي وقف متسائلا عن ماهيته حتى وجد أمه ترجع مرة أخري مرحبة بذلك الضيف قائلة « مرحبا يا عم سالم صار زمن لم نتقابل ».

نظر لها سالم ثم جلس على أحد الكراسي قائلا «مر وقت طويل يا بنت الأكرمين، رحم الله محمود ورحمنا ربنا من بعده فما نحن مقدمين عليه لهو كرب عظيم » ثم نظر الى أدم مكملا حديثه قائلا « ذلك الحمل الذي تركه لك والدك لهذا جئت إليك اليوم كي أعرض عليك أمرا هاما قد أخفاه عنك والديك، لهذا أتمنى أن تستمع لي جيدا في حضور والدتك».

وقف أدم متسائلا عن ماهية ذلك الرجل ناظرا الي والدته التي ابتسمت له قائلة «هذا العم سالم صديق عائلتي وصديق شخصي لوالدك يا بني لا تقلق وأنصت له جيدا، سوف أقوم بأعداد الشاي لكم ليتثنى لكم الحديث بحرية».

نظر أدم للرجل في حيرة قائلا « إذن أنت صديق العائلة وتريدني لأمر جلل كما تدعي والأغرب منذ وفاة والدي كل من يقابلني يطلب مني الاستماع أو قراءة شيء لا أفهمه، فلتتحدث أيها العم لعلى أفهم تلك الألغاز».

أبتسم عم سالم قائلا «أبلغ من العمر خمسة وثمانون عاما منهم أربعون سنه في قرية الخير قبل أن يحكمها جدك موسى أتى علينا بالخراب فلم أطق الانتظار فرحلت الى الإسكندرية حيث لحقت بعدة وظائف منها عامل في مصنع للأخشاب يمتلكه الحاج على جدك والد الست نعمات كما كنت أحب أن أناديها، لكن قبل هذا كنت صديق لمحمود والدك منذ أن كنت بالقرية فهو الوحيد من أشقائه الذي تمرد على الواقع وسعى لحلمه لكن عيبه الوحيد الدائم هو التناقض في القول والفعل لكنه تمرد على حكم والده فهرب بعد تولى شفاعة زمام الأمور وأصبح ملعون منهم ممنوع من دخول القرية بأمرها بجانب أعمامك أصحاب النفوس المريضة التي جعلتهم شفاعة كمصاصين للدماء حين سمحت لهم بالقدوم لأخذ أموال والدك».

قال أدم وقد بدا التعجب يتحول الي الغضب قائلا «ما الجديد فيما تقول؟، أرجوا لو كان لديك أمرا هاما كما تقول إن تخبرني به فلدي ما يكفيني».

أبتسم سالم له قائلا «تعالي معي يا أدم الى الداخل لتعرف ما أريد أن أقوله لك».

وقف أدم متحفزا وهو يقول «كفى هراء من أنت لا أعرفك وكيف تسمح لنفسك بمساحة لم أخصصها لك؟، أشعر أن هناك أمرا غير طبيعي مع وفاة والدي كيف لي أن أفكر في أي شيء».

نظر له سالم بجدية قائلا «يا بني هذا ليس باختيارك فالأحداث من حولك تمر سريعا فعليك مواكبتها حتى لا تدهس تحت عجلاتها فيضيع كل ما فعله والدك في حياتك لذلك دعنا ندخل لترى بعينيك مقصدي».

دلف أدم بدون تردد الى داخل القصر خلفه سالم حينها وجد والدته تقف على باب مكتب والده قائلة « يبدوا أنه حان الوقت لكن تلك المرة ستكون الفاصلة، عندما تنتهون سوف أكون في انتظاركم « ثم فتحت باب الغرفة ليتقدم سالم ليقف بجانبها قائلا « معك مفتاح وخاتم أخرجهم حين تغلق الباب خلفك»، بعد أن دلفا الي الداخل وأغلق أدم الباب أخرج من جيبه ذلك المفتاح والخاتم فوضعهم على مكتب والده.

نظر سالم لهم ثم لأدم قائلا «أشياء بلا قيمة لكنها مفتاح لحياة جديدة وميراث تركه لك والدك»، حينها التقط المفتاح

ثم تقدم ناحية المكتبة التي توجد بها صورة لرجل كبير فأزاح بعض من الكتب القديمة ثم وضح المفتاح في الحائط حتى فتح باب سرى فأشعل الكهرباء فوجد درج يهبط الى الأسفل فسار وخلفه أدم حتى فتحا باب خشبي قديم لغرفة مكونة من مقعد أمامها منضدة عليها شمعدان نحاسي الى جانب صندوق معدني متوسط الحجم وبعض الشموع منثورة على المنضدة كأنها استعملت من قبل، نظر سالم لأدم الذي وجد على وجهه علامات الدهشة والتعجب حين وقف يتفحص تلك الغرفة الغريبة.

نظر له سالم ثم قال له «أجلب هذا الصندوق وتعالي معي لأشرح لك ماهيته وما أنت مقدم عليه».

مازال أدم يتفحص تلك الغرفة قائلا «أعيش هنا منذ عشر سنوات فأكثر لم أعلم أن هناك سرداب وما السر وراء عدم أخباري به؟».

أدار سالم ظهره قائلا «ألتقط الصندوق لنصعد».

بعد أن صعدا الى المكتب جلس سالم على الأريكة المقابلة للمكتب قائلا «أجلس على المكتب يا أدم ثم أفتح الصندوق».

كانت نظرات أدم تدل على الحيرة التي يشوبها القلق فما

كان إلا أنه جلس على مقعد المكتب بحذر شديد قائلا « بدا الموضوع أن يكون مقلقا أشعر بروحي قد سلبت مرتين أولهما حين توفي أبى منذ شهر ثانيا تلك الساعات الغريبة التي مرت على منذ أن استيقظت من نومي و..............».

قاطعه سالم بحدة قائلا «أخبرتك ما أنت مقدم عليه ليس بالهين، أفتح الصندوق لتخرج ما بداخله ثم دعنا نتحدث».

كان غطاء الصندوق ثقيلا بعض الشيء لكن أدم فتحه بعد عدة محاولات ثم أخرج منها أربعة لفافات الى جانب كتاب مغلف بجلد حيوان الغزال، حينها نهض سالم قائلا «هذه هي البداية يا أدم ما تراه أمامك لهو ميراثك من والدك وعائلته، يجب عليك أن تنصت لي جيدا و...............».

بصوت تملؤه الحدة والغضب قال أدم «ما كل هذا الهراء عن أي ميراث تتحدث، لا أفهم شيء أشعر كأن الدنيا كلها تدور حولي». قبل أن يتحدث سالم دخلت عليهم والدته قائلة «هذا ما كنا نخفيه عنك وما قرأته في المفكرة السوداء الخاصة بوالدك هي الحقيقة، يا بني أن والدك قد لعن من قبل والده وأخوته حين ترك قريته وهرب الى الإسكندرية في بداية حياته، دع عم سالم يسرد لك ما يريد قوله حتى يتسنى لك الحكم على الأمر».

نظر سالم لهما متسائلا عن تلك المفكرة السوداء لكن نعمات

لم تعطيه الفرصة للحديث فقالت «لقد أحرقتها بعد أن قرأها أدم لذلك أرجوا منك يا عم سالم أن تتحدث فالأمر أصبح واقعا».

نظر لها سالم قائلا «لا يهم، أريدك أن تلقي نظرة على محتويات الصندوق جيدا، ذلك هو الميراث فمنذ أكثر من خمسة وثلاثون عاما كان جدك الأكبر موسى قد عقد صفقة مع الشيطان المدعو الشيخ السماوي الذي سفك من أجله الكثير من الدماء، تلك الصفقة هي ميراث الدم الملعون لعائلتك فجميعهم بعد موت جدك أمامهم قد بايعوا شفاعة تلك الفتاة الحمقاء منذ صغرها على السمع والطاعة حتى يحين الموعد المحتوم لفتح ذلك الكنز». نظر له أدم في تعجب واضح قائلا «تتحدثون عن الكنز ولا أعرف ما هو، ميراث الدم الملعون هم من يحملونه ليس أنا أو أمي أو أبى، في النهاية هي مجرد أموال ليس أكثر».

احتد سالم في نظراته له قائلا «أن تلك اللفافات تحمل الكثير من المعاني أيها الأحمق الى جانب ذلك الكتاب الغامض سترث ما ترثه لكن لأي الفريقين تنتمي، حين قص على والدك ما حدث حين توفى جدك وتلك الوصية الغريبة لم أكن أعلم ما خطورة الأمر فطلبت منه أن يبدأ حياته من جديد لعله يجد ضالته وبالفعل قد كافح والدك كثيرا فالتحق

بالكثير من الأعمال حتى استقر الأمر عند والد أمك الحاج على السكري تاجر الأخشاب المعروف في المدينة حينها شاهد والدتك وتزوجا بعد قصة حب طويلة حينها طلب من الحاج على أن ينتقل الى القاهرة ليبدأ مشوار كفاح من جديد فسمح له جدك بذلك ففتح محل للأخشاب في منطقة السيدة زينب وهناك توسعت تجارته فاشترى بيتها من طابقين في حارة أمام المسجد مباشرة، لكنه لم ينسى ماضيه فظل ينقب عنه حتى أشترى بماله الثلاثة لفافات من أخوته محمد وإبراهيم وإسماعيل ، لا أخفيك أمرا فقد كان والدك شخصية متناقضة زادت حدتها حين حصل على تلك اللفافات ولا أعلم أي من الحماقات قد أرتكب لذلك كن على حذر شديد فوالدك أرتكب حماقة كبرى وهي أن باع روحه للشيطان فأصبح محكوم عليه بالموت، تلك الصفقة من أجل شيء ما لا أعلم ما هي و...............».

قطع أدم حديث سالم باستهزاء قائلا «نعم. نعم قرأتها في العديد من الروايات وشاهدتها في أفلام ومسلسلات عدة، ماذا بعد؟، ماذا سوف أجنى من كل هذا الهراء».

نهض سالم من مكانه مستعدا للرحيل بعد أن وجد في كلام أدم بالمهانة قائلا «أخبرني يا أدم على الرغم من مجموعك في الثانوية العامة الذي يؤهلك لدخول كلية الهندسة كما

كنت تحلم أصر والدك على دخولك لكلية تؤهلك لدراسة اللغة الفرعونية القديمة، بالمناسبة ما بين الواقع والخيال شعرة قد ينقلب واقعك لخيال وخيالك لواقع وأنت تحدد ماهية نفسك بها فكن على حذر». دخلت الأم على الفور لكن سالم لم يمهلها الوقت للحديث فنظر الى أدم قائلا «لو أردت معرفة الحقيقة كاملة فأذهب الى عبادة العراف سوف يكون مرشدك في الفترة القادمة، تذكر جيدا أن تحدد ماهية كل شيء ما بين الواقع والخيال».



الفصل السابع

كف الميزان

المكان: بيت في حارة بمنطقة السيدة زينب، الزمان: منذ واحد وعشرون عاما.

في حارة بمنطقة السيدة زينب كان هناك بيت مكون من طابقين يملكه الحاج محمود موسى صاحب محل الأخشاب المعروف في ميدان ذلك الحي وزوجته نعمات اللذان كانا يتمتعا بسمعتهم الطيبة، كان ذلك اليوم مميزا فجر وقفة عرفة فالحارة جميعها مستيقظ في انتظار مولود الحاج محمود وما هي إلا دقائق معدودة بعد أن فرغا من الصلاة حتى أعلنوا قدوم رضيع صغير فصعد سريعا الي بيته فاستقبلته نساء الحارة بالمباركات على وهبة الله له، دلف الى الغرفة ليطمئن على زوجته وابنه الذي سماه أدم.

نظرت له نعمات في حنان بالغ «أترى أنها بداية جديدة لنا ننسى فيها الماضي لنبدأ حياة هادئة لا تشوبها شائبة».

قبلها محمود على رأسها قائلا «لماذا تخبريني بذلك؟، فأنا منذ أن تزوجتك أصبح كل شيء ماضي لا أريد تذكره».

نظرت له في قلق بسيط تحاول أن تخفيه عن معالم وجهها

قائلة «أخشى من الماضي وثعابينه فذلك ليس بهين يا محمود، خاصة بعد أن شاهدت الزيارة الأولى لك من أخوك إبراهيم».

ضحك محمود قائلا «لا تقلقي فأنا أعرف دوائهم جيدا أما الماضي فقد سحقته منذ أن جئت إليكم للعمل فأرجوا ألا نفسد فرحتنا بذلك الصغير ودعينا نستمتع بحياتنا».

كانت الحياة هادئة يشوبها السعادة والفرح حين بلغ أدم الخمس سنوات فبدأ والده بالسماح له باللعب في الحارة مع باقي الأطفال فكان هو وصديقه قاسم أبو السعد أبن الشيخ الحارة دائما اللعب سويا، في أحد الأيام كانت الساعة الخامسة مساء حين هبطت على الحارة سيارة صغيرة يهبط منها رجل بجلباب صعيدي يسأل عن بيت الحاج محمود الذي وجده يهبط من بيته سريعا مرحبا بذلك الضيف، حينها كان ادم يلهو مع باقي الأطفال حين نظر إلية موجها سؤاله إلي الحاج محمود إن كان هو فعلا أبنه، فأشار برأسه بأن ذلك الطفل هو ابنه ثم اصطحبه الى داخل المنزل بالطابق الأرضي.

نظر له الحاج محمود قائلا بعد أن أغلق الباب عليهما «أخبرني هل أخبرت أخوتي عن تلك الصفقة التي أريد أن أعقدها معهم؟».ضحك ذلك الرجل قائلا «أن عملي هو عقد

الصفقات يا محمود لذلك كان اتفاقي معهم أن يأتوك بما تريد مقابل المال مدى الحياة لهم ولأبنائهم من بعدهم، الأمر غاية في البساطة».

حينها جلس محمود على الأريكة قائلا «أنت لا تعلم مدى أهمية تلك اللفافات لي فهناك كنز خفي سوف يقودني للنعيم الأبدي». ضحك ذلك الرجل قائلا «دائم التناقض منذ مولدك يا محمود، فكيف لك أن تكون ناقما على معيشتك واهلك لتعقد صفقة للهروب ثم تعود لتنبش قبور الماضي لمكان صرت فيه ملعونا أنت وذريتك».

« لأجل هذا أريد تلك اللفافات، أريد ألا يكون ذلك الميراث في يد شفاعة وأعوانها بل أنا من أستحقه خاصة أني الوريث الشرعي للقرية وميراث والدي».

نظر له ذلك الرجل حين أخرج صندوق صغير قائلا «كيف عرفت أنك من تستحق ذلك الميراث؟».

نظر محمود لذلك الصندوق في ريبة قائلا «حين خرجت من القرية كنت قد عثرت في صندوق والدي على ورقة تفيد بذلك».

ضحك ذلك الرجل بسخرية قائلا «كاذب أثم يا محمود متناقض الشخصية كعادتك، حين عقدت تلك الصفقة مع

شيخنا السماوي فمنحك ما تريده صرت تتطلع للمزيد في نفس الوقت تريد حياة هانئة مع صغيرك الذي سلبت منه حق الحياة الطبيعية وأدخلته في لعبة الموت، أنتم عائلة ملعونة تسري في عروقكم دماء الشيطان فلا تظن أنك سوف تهنأ حتى وأن تحصلت على ما تريده فللشيخ السماوي النصيب الأكبر، ذلك الصندوق الصغير لهو الصفقة الأخيرة لنا معك إن حان أجلك سوف يكون للضيف الأكبر النصيب في ملاقاتك».

حينها دخل أدم عليهم مطالبا ببعض النقود من والده كي يتسنى له أن يشترى الحلوة مع أصدقائه، حينها مال عليه ذلك الرجل قائلا «أسمك أدم صحيح».

أبتسم له أدم ببراءة الأطفال قائلا «نعم أسمى أدم وأنت؟».

قال له ذلك الرجل «سوف يكون لك شأنا عاليا في المستقبل أيها الصغير».

ابتسم أدم له ثم مد يده لوالده الذي أعطاه النقود مسرعا ثم أمره بالخروج، حين خرج أدم نظر محمود لذلك الرجل قائلا «هذه هي الصفقة الأخيرة كما قلت لذلك دعني أعد العدة لما سوف يحدث، أما الآن كل ما أريده هو تلك اللفافات».

نظر له الرجل قائلا «معك الآن أربعة لفافات أما الباقي فتلك مهمتك مع باقي إخوتك، مبارك عليك الصفقة وتذكر الوعد والعهد».

دلف الرجل خارج المنزل وخلفه محمود الذي نظر الى أعلى فوجد نعمات تقف في الشرفة مراقبة للموقف، فصعد لها بعد أن ذهب الرجل بسيارته بعيدا مسرعا ففتحت له الباب قائلة «مازلت تنبش في الماضي يا محمود الم يكن وعدك لي أن نعيش حياتنا في هدوء وسلام».

قال لها محمود بعد أن جلس على المقعد قائلا «لا تخافي فكل الأمور تسير على ما يرام فلن يقوي على أحد بعد تلك اللحظة».

نظرت له نعمات في حزن ظهر على معالمها وهي تدير ظهرها له قائلة «الأمور لن تسير على ما يرام فما تفعله ليس سوى جنون لن نجني منه شيء سوي الجحيم».

نظر محمود لباب غرفتهم الذي أغلق بقوة قائلا لنفسه «نعم أعلم أن بوابة الجحيم قد فتحت على لا عليكم فكل ما أفعله هو غلق باب الشيطان للأبد لأضمن لكم حياة هادئة فكف الميزان أصبح منى، فمهما علمنا نحن ملعونين للأبد ولا مكان لنا سوى الجحيم لذلك أستعد لضمان حقكم في الحياة».

***

مرت خمسة أعوام حين أنتقل الحاج محمود وأسرته للعيش في ذلك القصر الذي بناه بأحد الأحياء الراقية حينها تغيرت حياتهم تماما فنسوا أهل حارة السيدة زينب وأصبحوا علية القوم لكنه لم يغلق الباب في وجه أحد منهم كما كان قديما، سنوات فسنوات تمر حتى أصبح أدم شابا يافعا فدخل أحد كليات الأدبية قسم اللغة الفرعونية على الرغم من مجموعه العالي ورغبته في دخل أحدى كليات القمة لكن رغبة والده كانت أقوي منه، حينها كانت الأم تعمل في مجال العمل الخيري برعايتها لأطفال أيتام حين شاهدت تلك الصغيرة الحسناء المنبوذة من قبل أخوتها في الدار فتقرر أن تتبناها، أسمها مريم وعمرها في ذلك الوقت أربعة سنوات لم تفهم نعمات ما سر نبذها خاصة أن معظم المتواجدين يرفضون الحديث عنها لكنها طلبت من أدارة الدار أن تتبناها وبعد إلحاح على زوجها تمت الموافقة على طلبها فعاشت مريم كواحدة من أفراد الأسرة.

في تلك الفترة كثرت زيارات أخوة الحاج محمود له فطلب من نعمات أن تخفي مريم عن الأعين بدون أبداء أي أسباب حتى جاء اليوم الذي شاهدها فيه إسماعيل وأبنائه بعدها خمد صوت الحاج محمود للأبد وتولي أدم زمام الأمور غصبا

لكنه كان يتذكر حين كانوا يجلسون في الحديقة ويقول لهم «أنتم كف الميزان لي فأحسنوا ظني فيكم».

***

الفصل الثامن

بداية الحكاية

«من هنا بدأت حكايتي حين انقلبت حياتي رأسا على عقب بعد وفاة والدي كانت الأحداث سريعة من حولي، مشهد جثمانه المتفحم بعدها تلك المفكرة العجيبة التي لم أفهم منها شيء ثم عم سالم والصندوق الذي وجدته بالسرداب المخفي وقصة والدي مع شفاعة أخته الى جانب تغيير معاملة أمي معي فوجدت بها بعض من الغموض، شعرت بأني مقدم على أمر أخطر مما قيل لي لهذا قبلت ذلك التحدي المصيري لعلي أجد ضالتي فأجد الراحة والسكينة مع عائلتي».

***

في أحد الأيام عدت الى القصر بعد يوم عمل شاق في المصنع فلقد استلمت مقاليده بعد مرور أكثر من أربعون يوما على وفاة والدي لا أخفي أمرا إن ما مررت به لم يعد يشغل بالي أو تفكيري بل بالأدق كان في طي النسيان لي، لكن ما كان يقلقني هو سكون أمي التام فلم تعد تتحدث معي أو تلعب مع مريم كعادتها حاولت التحدث معها مرارا وتكرارا لكن محاولاتي باءت بالفشل.

مازال ذلك يؤرق منامي لكن تلك المرة يأتي على فترات بعيدة لكن زادت حدته بعد وفاة والدي فكان الحلم هو أرض قاحلة يتوسطها بيت من الخوص والطين، أبى وأخوته خلفهم شفاعة تشير لمكان ما وهو باب كبير عليه نقوش ثم اصطفافهم جميعا خلفها الى جانب الملثمين الذين وقفوا حاملين تلك الفتاة الصغيرة التي تم نحر عنقها أمام الباب ثم انقضاض عمتي على لتمسك بيدي لفتح ذلك الباب.

مازلت أحفظ كلمات شفاعة حين قالت « للمجد أتينا وللمجد نحن أهله، بقوة أهل الدار وببركة الشيخ السماوي وبكل أل بيته من مريدي أهل بيت العظيم الأكبر، فلتفتح لنا باب النجاة ولتلقي علينا بنورك كي تغمرنا السعادة الأبدية وللنعم بمقدساتك إلى أبد الآبدين، لتقبل قرابيننا ودمائهم الطاهرة لتروي بها أرضك ولينعم به أتباعك من بعدك يا صاحب المجد الأعظم »، أستيقظ مفزوعا قبل أذان الفجر أفكر في ذلك الحلم كأنه حقيقة فأنهض لأطمئن على مريم وأمي لأجدهم غارقين في النوم، أصبح الوضع مع ذلك الكابوس صعبا لذلك قررت أن أقصه على أمي حين تستيقظ.

استيقظت من نومي مبكرا لأجد أمي تجلس في الحديقة فهبطت مسرعا مازحا بقولي «فيما تفكرين يا أمي أهو حب جديد؟».

نظرت لي بابتسامة باهتة ولم تنطق حينها جلست بجانبها قائلا «أمي ما بك لماذا تفضلين الصمت عن الكلام وهذا على غير عادتك أرجوا أن تتحدثي معي أنا أبنك».

مازال الصمت يخيم على جلستنا فطلبت منها أن تنصت لي فهناك كابوس يؤرقني كان يراودني قبل وفاة والدي لكن الآن أصبح الأمر لا يطاق، حينها نظرت لي مشيرة برأسها أن أسرد لها وقائعه بدا عليها التعجب والاهتمام الشديد لما أقوله لها حتى جاءت لحظة نحر عنق الفتاة فقامت مفزوعة من مكانها بطريقة أربكتني قائلة «مستحيل ذلك أن يحدث، لماذا يا أدم لم تخبرني عن ذلك الحلم من قبل؟».

نظرت لها بتعجب موضحا لها أنه مجرد كابوس فقالت لي بحدة «يا أدم هناك أمرا غير طبيعي يحدث منذ وفاة والدك ولابد لك أن تعرف أن هناك سرا يجب عليك كشفه فمنذ أن قرأت أنت مفكرة والدك السوداء وقدوم عم سالم لم تعر الأمر أي اهتمام وهذا خطر واضح علينا».

مازالت نظرات التعجب والدهشة تعتريني فأمي تتكلم بحدة غير معهودة لذلك قلت لها «أهتم بماذا يا أمي بكلمات غير مفهومة قراءتها في مفكرة تدعي أنها ملك لأبي أم لحديث ذلك العجوز الخرف عن ميراث الشر وتلك العمة المختلة وقصتها مع أبي أم ذلك الصندوق الغريب بما

يحتويه والسرداب الذي أخفاه عنا، من واقع الأمر أري أن كل ما يحدث هراء لا قيمة له لذلك دعينا ننتبه الى مستقبلنا».

نهضت أمي من مكانها قائلة «كل ما تقوله لا يساوى شيء فميراثك الحقيقي فيما تركه والدك لك وزرعه بك فلا تخيب أملي فيك، فالأمر أخطر مما تتصور».

نظرت لها بعد أن أشفقت على حالها قائلا «لكي ما تريديه يا أمي لكن أخبريني هل تخفي عليا أمرا؟».

نظرت لي بثبات ثم جلست قائلة «استمع جيدا لما سوف أخبرك ولا تفعل معي كما فعلت مع العم سالم».

ابتسمت لها لتكمل حديثها فقالت «حين تعرفت على والدك كان شخص تائه حائر متخبط في الدنيا كما لو كان لديه الكثير من الهموم لكني شعرت بداخلي أن هناك أمرا ما يخفيه على الرغم من دماثة أخلاقه وإخلاصه في العمل مع والدي هنا نشأت قصة حب بيننا توجت بالزواج، كان قد عاهدني على الصراحة المتناهية لذلك قص على حكايته منذ مولده لخلافه مع شفاعة وخروجه من القرية ملعونا منها، كل ما قرأته وأخبرك به العم سالم صحيح وليست محض خيال أو تخاريف لذلك حين تركت الصندوق بمحتوياته على مكتب والدك أرسلته لبيتنا القديم بحي السيدة زينب تحسبا لحدوث أي شيء هناك سوف تكون الإجابات الشافية لك».

نظرت لها بتعجب ثم قلت مازحا «ها أنت تحدثيني بالألغاز مرة أخري ثم كيف لك أن ترسلي ذلك الصندوق لبيتنا القديم؟».

مازالت أمي واقفة لكن تلك المرة بدأت تبتسم «أثق في ذكائك يا أدم لذلك عندما يتسنى لك الوقت أذهب الى هناك ثم أسئل عن الحاج أبو مصطفي ومنه سوف تعرف ما تريده، حين تصل الى مرادك أستعن بالشيخ عبادة فسوف يكون رفيقك لنهاية المشوار، كن قويا فما سوف تلاقيه لهو أصعب مما تتخيل فأنت في حرب متعددة مع ذاتك ثم مع شفاعة وأخوة والدك فلا تثق إلا بنفسك فأنا على يقين بحصولك على المراد المنشود».

خبط كف على كف ناظرا إليها «أعلم أن هناك ما تخفيه وقد سئمت من تلك الألعاب التي أعيشها منذ وفاة والدي لذلك لن أضغط عليك يا أمي فحين تحبين الحديث فأنا موجود، أما الآن فعلي الذهاب للمصنع فهناك أعمال كثيرة تنتظرني».

ركبت سيارتي متجها الى المصنع وكلماتها ترن في أذني لا أعلم تلك المرة قلبي يحدثني بأن الأمر خطيرا فأمي ليست في حالتها كأن هناك خلل في أمر ما، هل هو بسبب وفاة والدي أم أن ذلك الميراث الذي أخبرنا به العم سالم.

***

مرت خمس ساعات على وجودي بمكتبي بالمصنع أفكر فيما قالته أمي أتذكر الأحداث جيدا منذ وفاة والدي، لا أنكر أني بدأت أهتم بالأمر بدافع الفضول لأثبت لأمي أن كل ما يحدث أو يقال لهو محض هراء كبير يعيشونه بسبب عقدة شفاعة ومشاكلها مع أبي الى جانب استغلال أخوته له، حين قطع تفكيري رنين هاتفي المحمول فأجبت عليه فكان صوت رجل منزعج يخبرني فيه بحريق هائل شب في قصرنا، لم أتمالك نفسي فذهبت على الفور لأتأكد من صحة المكالمة فصدمت حين وصلت للقصر فوجدته مشتعلا والنار تأكل جوانبه في مشهد لا أنساه، كانت سيارات المطافئ والإسعاف بجانب سيارتي للشرطة تحيط بالمكان فحاولت الدخول صارخا على أمي ومريم لكنهم منعوني، أربعة ساعات يطفئون في النيران بعدها دلفت لداخل القصر لأجد كل شيء متفحم أخذت أبحث عن أمي ومريم فلم أجدهم هنا أمسكني نقيب شرطة يدعي حسام فأخرجني من المكان بعد أن نشبت فيه النيران من جديد، يوم أسود يضاف الى سجل حياتي لكن منذ لحظتها أدركت خطورة الأمر.

نظر لي حسام قائلا « البقاء لله يا أستاذ أدم أعلم أن المصاب كبير هذا الكارت به رقمي أنا نقيب حسام صلاح،

حين تستطيع الحديث لا تتردد في مكالمتي سوف أنتظرك »، نظرت إليه فقط كانت نظرة كفيلة بأن تظهر ما في داخلي فتركني على الفور وأنصرف، الآن صرت وحيدا في مواجهة مجهول، عمري واحد وعشرون عاما لكني أصبحت عجوزا في جسد شاب لا أعلم ما سوف يواجهني لكن ما أعلمه تلك النيران التي اشتعلت فجأة في صدري وعندي رغبة كبيرة في معرفة الحقيقة.



الفصل التاسع

في مولد السيدة زينب

الزمن: الساعة التاسعة صباحا بعد أسبوعان من حريق القصر -المكان: داخل مصنع الأخشاب.

كان مصابي أليما أعيش حياة متخبطة بعد أن فقدت كل ما لي في تلك الحياة البائسة، أسبوعان مضوا بعد حادثة الحريق أعيش في مكتب المصنع لا أعلم ما سأفعله ولا أتذكر سوى كلمات أمي عقلي متوقف عن العمل مشتت لا أقوى على الحديث مع أي أحد خاصة بعد أن علمت بموت أمي ومريم حتى الآن لم أسمع أخبار أن كانوا قد وجدوا جثمانهم بداخل القصر، مرت ساعتين حتى طرق باب مكتبي أحد الموظفين طالبا منى الأذن بالدخول وما أن دخل حتى أخبرني بقدوم نقيب الشرطة حسام لمقابلتي فأمرته بأن يدخله، شاب متوسط الطول قوي الجسمان أبيض البشرة ملابسه راقية ورائحة عطره نفاذة أن دلت تدل على قدومه من أحد الطبقات الراقية، دخل الى المكتب ينظر لي بابتسامة باهتة مصافحا لي فأشرت عليه بالجلوس حينها سألته عن مشروبه فطلب فنجانا من القهوة.

أخرج علبة سجائره ثم أشعل واحدة فنفس دخانها في

الهواء ثم بدأ حديثه قائلا «أعلم أن مصابك أليم يا أستاذ أدم ففي شهرين وأكثر فقدت والدك ومنذ أسبوعين فقدت قصرك بما فيه، يومها أخبرتك بأني سوف أتولى التحقيق في الأمر وها قد استلمت تقرير المعمل الجنائي الذي يشير الى نشوب حريق هائل بمواد مجهولة تشتعل ذاتيا كانت مخزنة في أحدي حجرات القصر، لكن أريد أن أسألك عن شيء ما يحيرني».

نظرت له قائلا بوجوم واضح على معالمي وصوتي «ما هو الشيء الذي يحيرك؟، أخبرني به».

نفس دخان سيجارته ناظرا لعيني مباشرة مما أربكني قليلا قائلا «حين قمنا بفحص القصر بعد الحريق الذي امتد لليل لم نجد سوي جثمان واحد لرجل متفحما تماما و..........».

قاطعته في حدة قائلا له «ماذا تقصد؟، أتقصد أنكم لم تعثروا على جثمان أمي وأختي بعد أسبوعان من الانتظار تريد أن تخبرني بذلك؟!».

نظر لي حسام بعد أن أطفأ سيجارته قائلا «نعم هذا ما أريد قوله لذلك أريد منك أن تتأكد هل بالفعل كانا موجودين بالقصر ساعة وقوع الحريق، أم ذهبا لمكان ما عند واحد من أقاربكم أم..........».

للمرة الثانية أقاطعه بحدة لكنه لم يمهلني الفرصة فأكمل حديثه قائلا كأنه يجيب على ما يدور في ذهني قائلا «يا أستاذ أدم طوال الأسبوعين الماضيين لم نكن نتنزه أو لا نباشر عملنا، لقد قام الفريق المختص بالبحث بدقة خاصة أن هناك احتمالات واردة تثبت أن الحريق كان بفعل فاعل وبعد أن خرج تقرير المعمل الجنائي جئت لك بصورة منه على الرغم من عدم قانونيتها لكي أسألك بشكل ودي ليس في تحقيق رسمي عن صحة وجود أهلك في ذلك اليوم، أخبرني أين أنت منذ أسبوعين ألم يكن عليك مباشرة الأمر لكني أشفق عليك مما أنت فيه، لكن هل أنت على يقين بوجودهم يوم الحادث؟».

نظرت له باستسلام تام قائلا «ماذا تقصد؟ لقد تركتهم ذلك اليوم في المنزل قاصدا المصنع لأباشر العمل بعد وفاة والدي، نعم أنا متأكد من ذلك».

نهض حسام من مكانه مديرا لي ظهره قائلا «إذن سوف أنتظرك في مكتبي لاستكمال التحقيق أمامك يومان وإلا سوف تحفظ القضية وتقيد ضد مجهول، نصيحة من أخ تأكد جيدا أن والدتك وأختك بخير». ثم خرج من باب المكتب بعد أن أغلقه لم يعطني الفرصة للكلام غريب ذلك الشخص لماذا جاء ولماذا ترك لي ذلك التقرير ، أشعر بدوار

في رأسي كل الأحداث تمر أمامي سريعا مازالت كلمات أمي عالقة في أذني كأني أسمعها لأول مرة حينها ضغط على زر الجرس فسئلت ذلك الموظف عن تاريخ اليوم خاصة بعد أن تذكرت أغلب العاملين من منطقتنا القديمة بحي السيدة زينب فأخبرني أن اليوم هو ليلة مولد السيدة زينب، حينها ساد الصمت لدقائق فنظر لي ذلك الموظف قائلا «أستاذ أدم إن اليوم هو الخميس فلماذا لا تأتي لتقضي معنا تلك الليلة لتحضر ذلك المولد ببركته وبركة آل البيت ».

لا أعلم لماذا تذكرت كلام أمي في ذلك الوقت على بيتنا القديم والحاج أبو مصطفي انتابني شعور بأني سوف أجدها وريم بالمنزل القديم هناك، حينها ابتسمت للموظف وقررت الذهاب معه بعد العمل لحضور ليلة المولد ثم قضاء يوم الجمعة في حضرة رحاب حفيدة بنت النبي « صلي الله عليه وسلم » لعلي أجد الإجابة الشافية لكل ما يحدث لي.

***

كان يوم عمل شاق أنهيناه على الساعة الرابعة عصرا حينها كنت جالسا في مكتبي حين دخل على بعض من الموظفين والعاملين بالمصنع طالبين أن أتي معهم بعد عدة محاولات وافقت، خطت قدماي منذ وفاة والدي ذلك الحي لا أدري لماذا تملكني الشعور بالراحة والسكينة حين شاهدت مظاهر

الاحتفال بمولد السيدة زينب، خيم أهل الطرق الصوفية منصوبة مع العاب الملاهي البدائية التي كنت العب فيها حين كان يأتي بي والدي أليها، ذلك الصوان المنصوب أمام باب المسجد مع وجود الكثير من المظاهر المبهجة لأهل المولد وزائريه وفاعلي الخير المنتشرين بالأرجاء، شعور رائع لا أستطيع وصفه قد أقول أنه أزاح همي بعض الشيء، تلك المناظر التي تأثر القلب كنت مفتقدها منذ أن سكنا بذلك القصر على ونسيان يوم المولد الذي كان مقدسا عند والدي، كنت أتجول ما بين المريدين بلا هوادة لا أحسب الوقت حتى توقفت قدماي عند تجمع حول رجل عجوز ينشد في حب السيدة زينب وآل البيت من حوله المريدين في حالة نشوة كأنهم سكارى، كان وجه ذلك العجوز مألوفا ما أن أنتهي فأنفض الجمع من حوله وقتها أدرت ظهري للذهاب فوجدت من ينادي على باسمي استدرت لأري من المنادي فوجدته ذلك العجوز مشيرا لي بالقدوم، تقدمت بخطوات بطيئة حتى اقتربت منه فجذبني بحرارة معانقا لي فقمت بدفعه فضحك قائلا «لم تتغير يا أدم منذ أن كنت صغيرا، اتبعني».

وجدت نفسي تلقائيا أتبع خطواته حتى توقفت على باب تلك الحارة، لقد بدأت الرؤية تظهر بالتأكيد ذلك الرجل هو الحاج أبو مصطفي الذي أخبرتني عنه أمي حينها وجدت

نفسي أركض ناحية بيتنا القديم لعلي أجد أمي ومريم بداخله لكن حين وصلت وجدته موصدا بسلسلة حديد عليها صدأ ومدخله ملئ بالغبار والأتربة، كان أبو مصطفي يقف خلفي يراقب المشهد قائلا «تعالي معي يا أدم فهناك الكثير من الكلام لابد أن أتحدث معك به قبل أي شيء»، صعدنا الي المنزل القابل لمنزلنا فوجدت أثاثا قديم لكنه مازال يحتفظ برونقه ثم خرجت علينا سيدة عجوز ممتلئة الجسد ترتدي جلباب ابيض عليه حجاب بنفس اللون وجهها كأنه نور وضاء رحبت بي فجلست على أقرب مقعد فنظرت لزوجها قائلة «سوف أترككم على راحتكم حتى أعد لكم الطعام».

نعم أعلم بأني لم أنطق بكلمة منذ أن قابلته لذلك استجمعت قواي قائلا «كيف عرفتني من وسط ذلك الحشد الذي كان واقفا مستمعا لإنشادك؟».

أبتسم لي قائلا «هي من أخبرتني بقدومك فكلامها حق على منذ أن ولدت ليوم موتي، يا أدم أعلم أنك في دائرة كبيرة محكمة الغلق لكنك الوحيد القادر على كسرها والخروج منها سالم بل غانم أيضا».

بداخلي حرب نشبت لا أعلم مداها وصوت أمي مازال في أذني وعقلي من الأفكار يكاد أن ينفجر ماذا يحدث لي؟ ما الذي أخفاها على أبي جعلني في تلك المتاهة الكبيرة؟،

نظرت للحاج أبو مصطفي قائلا « أخبرتني أمي بأن أتي لك حتى يتثنى لي فهم ما يحدث »، نهض من مكانه متجها ناحية مكتبه صغيرة على الحائط يفتحها ثم يخرج ذلك الصندوق المعدني ومعه الكتاب بجانب مفتاح أخرجه من جيبه، لا أخفي أن نبضات قلبي زادت فنظر لي قائلا «تلك هي الأمانة التي تركتها والدتك معي وهذا هو مفتاح المنزل الخاص بكم، أما الآن فحان الوقت لكي أخبرك ما أنت قادم من أجله».

نظرت له في غضب واضح على وجهي وصوتي قائلا له «سمعت تلك الجمل من قبل ولا يحدث أي شيء لقد انقلبت حياتي رأسا على عقب، لا أعلم ما أنا مقدم عليه و...........».

قاطعني أبو مصطفي قائلا «أخبرني يا أدم هل ستظل على تلك الحالة أم ستجد حل لما أنت فيه؟».

نظرت له قائلا «إذن أخبرني ما أريده لعل النار التي تأججت في صدري تهدأ».

قام الحاج أبو مصطفي من مكانه متجها الى الباب فقام بغلقه قائلا «أنت الآن بصدد مواجهة قوية مع أهل والدك خاصة شفاعة الأخت الكبرى وحاكمة قريتكم على ورث كبير قد أخفاه جدك في حياته، أعلم أن ما سوف أخبرك به

خارج نطاق العقل ولا يصدقه عاقل « أخرج حينها ظرف به ورقة أعطاها لي مكملا لحديثه قائلا « ذلك الظرف به ورقة قد خطتها أمك قبل وفاتها أخبرتني أن أعطيها لك وبداخل المنزل سوف تجد ضالتك».

نظرت له قائلا «إذن ما حكاية ذلك الكتاب الغريب والصندوق بما يحتويه؟».

ابتسم لي قائلا «ذلك الصندوق هو الخيط الأول للحصول على الكنز الذي تقاتل من أجله شفاعة، في قديم الزمن كانت هناك حاكم فرعوني يحكم المنطقة الجنوبية بأسرها كان شديد البأس يهابه الجميع لا يوجد فردا في ذلك الوقت قادرا على مواجهته فكان أعدائه الداخليين أكثر من الغزاة، قبل وفاته شيد لنفسه مقبرة كبيرة أشبه بالقصر جمع فيها أتباعه المخلصين من كبار رجاله وكهنته لكن ذلك لم يعجب الكثيرين فتأمروا عليه حتى قتلوه بلعنة فرعونية ، تلك المقبرة تحتوي على الكثير من الكنوز أهمها كأس الفرعون الى جانب مفتاح باب الجنة مع وجود نبوءة تقول بأن تلك المقبرة تحتوي على ذلك الكتاب المحرم الذي يجعل لقارئه سلطان على العوالم الأخرى وهذا كل ما أعرف».

حين هممت بالكلام كان الباب قد طرق عدة مرات على الطرف الأخر كانت زوجته تخبرنا بأن الطعام جاهز، جلسنا

على تلك الطاولة الصغيرة نأكل حتى سمعنا نداء من خارج المنزل فقد كان واحدا من مريدين السيدة زينب ينادي على الحاج محمود من أجل الحضرة، أنهينا وقتها طعامنا ثم هبطنا للأسفل قائلا لي بعد أن أخذ مفتاح المنزل منى قائلا «في غضون ساعات سوف يكون المنزل مستعدا لاستقبالك أما الآن دعنا نذهب لنأخذ نفحة روحية تجدد في خلايانا الأمل بعدها سوف نستكمل حديثنا»، لا أعلم هل تبلد عندي الإحساس أم أصبحت تائها ميت المشاعر فكيف لي أن أحضر ذلك المولد بعد كل ما مررت به أخرهم فقدان عائلتي بأكملها ثم ذلك الحديث الغريب لكني شعرت بأن هناك شيء ما يقودني لأني على يقين بكل ما أسمعه أو أمر به لهو محض هراء زائف أو يكون حلما سوف أستيقظ منه.

وصلنا الى صوان كبير في أخره مداح ينشد للسيدة زينب وآل بيت رسول الله، يقف حوله الكثير من مريدين المكان منتشين بما يسمعوا ويكبروا ويهللوا، شعرت براحة غريبة لم أشعرها منذ وفاة والدي ليلة كاملة قضيتها في سعادة لم أحظي بها، عدت معه الى الحارة لأجد أن منزلنا القديم قد فتح وأصبح جاهزا حين دلفت الى الداخل شممت رائحة الماضي الجميل كنت طفلا ألهو مع أصدقائي وجلوس أبي بعد العمل أمام المنزل مع أصدقائه... الكثير من الذكريات الجميلة حتى سمعت صوتا من خلفي يقول لي «مرحبا

بعودتك يا أدم». التفت لأجده صديقي القديم أحمد الذي كان مشهورا وقتها بين أطفال الحارة بالقوة الجسمانية الرهيبة فكان يهابه الجميع.

نظرت له مبتسما وأنا أقول «بعد كل تلك السنوات لم تنساني يا صديقي العزيز».

ضحك وعانقني بقوة قائلا «أنت لم تتغير يا أدم مازلت كما أنت بوسامتك المعهودة».

« نعم لم أتغير كما لم تتغير أنت بل زادك الله ضخامة وبنيان قوي». ثم توقفت عن الحديث وسقطت من عيوني دموعا غزيرة فلقد تذكرت ما مضى من أجمل الذكريات وما حل بي من مصائب حتى فاجئني أحمد بصوته الجهوري قائلا «قم لا تبك كالفتيات كعادتك، أعلم مصابك وفاجعتك لكن يجب عليك الصمود أمام ما هو قادم».

تعجبت من كلماته فقلت له «عن ماذا تتحدث يا أحمد؟».

نظر لي قائلا «لنصعد الى اعلي لنكمل حديثنا أيها الأحمق فالبداية من هنا».

***

الفصل العاشر

أسطورة الفرعون الملعون

المكان: منزل الحاج محمود بحارة بالسيدة زينب، الزمن: فجر يوم المولد.

بعد أن دلفنا الى داخل البيت بالدور الأول أغلقت الباب بأحكام بعد أن أضئنا الكهرباء بالمنزل، لم يتغير ذلك المكان بكل تفاصيله فمازال ذلك الأثاث موجودا كما رتبته أمي قبل مغادرته رائحة الذكريات فيه تطيب قلبي ووجداني أبحث بعيني لعلى أجد ضالتي أصبح كل شيء كان لم يتبقى سوي رائحتهم بالمكان، ترقرقت عيني بالدموع حتى أنتبه أحمد لي فربت على كتفي قائلا «ادع لهم بالرحمة ولنا بالخلاص يا أدم».

نظرت له قائلا «أحمد تعلم جيدا أنه لم يكن لي صديق سواك على الرغم من عدم تذكري للحاج أبو مصطفي صديق والدي لكني تذكرتك، أرجوك ساعدني أشعر بالخيبة والعجز كتائه في صحراء قاحلة أبحث عن شربة ماء ولا أجدها».

ضحك أحمد قائلا «مازلت كما عاهدتك مرهف الحس والمشاعر يا صديقي خذ الأمور ببساطة فكل نفس ذائقة الموت وكما قالها لي أبي نحن في حلقة تدور كل يوم بل

ساعة ودقيقه يولد مولد صغير يموت أمامه شيخ أو شاب، نتقابل ثم نفارق والحياة مستمرة».

مازلت أتجول بالبيت مكملا حديثي معه قائلا « أنت لا تدري حجم مصابي فقدان عائلتي ثم تلاحق أحداث مريبة ثم أمور مفروضة على ودائرة موت لا أعلم عقباها، كنز مجهول ومعركة مع عائلة أبي فكيف لي أن أكون في حالتي الطبيعية بعد كل هذا؟، حتى ذلك الشيخ أو الحاج أبو مصطفي كما تلقبونه يحمل لي أمانة وأنا لا أتذكره ولا أعرف متى جاءته تلك الأمانة ومن أوصلها له؟».

وجدت وقتها أحمد يضحك بشدة فنظرت له بغضب قائلا «مازلت تضحك كما هي عادتك ألا تراعي مشاعر من حولك».

اقترب منى أحمد واضعا يده على كتفي قائلا «مازال أمامك الكثير لتتعلمه يا صديقي، بالمناسبة والدي هو أبو مصطفي وكي لا أطيل عليك لأني أعلم أسئلتك مصطفي هو أخي الأكبر توفي قبل ولادتي بثلاثة أيام ثم سافر بعدها والدي للعمل بأحد دول الخليج لمده عشر سنوات وقد جاء بعد انتقالكم لبيتكم الجديد».

مازلت أتجول في البيت حتى توقفت عند طاولة الطعام التي كنت أجلس عليها مع والداي لكني وجدت ذلك الصندوق المعدني بجانبه ذلك الكتاب الغريب ومع كتاب

كبير الحجم قديم متهالك فوقف أحمد أمامي حين شاهدت محتويات الطاولة قائلا « تلك هي أمانتك يا أدم وأنا هنا لمساعدتك إن أردت لكن قبل هذا أريد منك أن تقرأ رسالة والدتك لك حتى أعود فسوف أذهب للمنزل لجلب بعض الملابس للنوم وأطعمة أمي الشهية ، بالمناسبة بعد أن تقرأ الرسالة أحرقها ولا تسأل عن السبب » ، أخرجت ذلك الظرف من جيبي ناظرا له أشمه لعلي أجد رائحة أمي فيه حينها جلست على واحد من كراسي الطاولة فاتحا للظرف أخرجت الورقة لكي أقرأها.

« ولدي العزيز: أدم.

بعد التحية الطيبة...........

عندما تقرأ تلك الرسالة أعلم أني وقتها سوف أكون في عداد الأموات، أعلم أن مصابك كبير وما وطأت قدماه فيك بسببنا لهو أمر عظيم قد يكلفك حياتك لكنى على يقين بأنك سوف تجتاز الأمر لتخرج غانم منه، سوف أقص عليك الأمر ببساطة لأني على يقين بأن كل ما فات لهو هين لما هو قادم فأريد منك أن تقرأ كلماتي بتمعن لأنك بطل تلك الحكاية لكن لأي الجانبين تنتمي لا أعلم.

سامح الله والدك فهو السبب الرئيسي لما نحن فيه لكنى كنت أعلم أنه مغلوب على أمره، أنت يا بني من نسل عائلة

موسى معاهد الشيطان الذي فضل أهوائه الشخصية على مصلحة قريته وعائلته فخلف من الأبناء سبعة كما تعلم، جدك كان على علم بأن القرية مبنية على مقبرة عظيمه لملك فرعوني لم يستدل على أسمه لكن أغلب الحكايات كانت تقول عنه الفرعون الملعون وهذا ما أريد منك معرفته حتى يتثنى لك العمل والحصول على مرادك فعقد جدك وثيقة مع شيطان أو ملك من ملوك الجان أسمه الشيخ السماوي وهو حارس المقبرة التي تحتوي على كنوز لو خرجت لأهل الأرض لدمرتها... نعم دمرتها فهي من صنع الشيطان والخير لا يأتي أبدا من شيطان.

وقتها بدأت الحرب بين أبيك وشفاعة أخته خاصة بعد أن نما لعلمهم أن واحدا من نسل ورثة الشيطان هو من يملك الحق لفتح باب السرداب الخاص بتلك المقبرة، فكان عليهم الاستعداد لكل ما هو آت حتى عقد والدك قبل هروبه صفقة مع أحد شياطين قبيلة الشيخ السماوي مقابل روحه، أعلم أن تصرف والدك غير صحيح لكن أنت الآن في المواجهة إن فشلت سوف تلاقي حتفك وتحصل شفاعة على مرادها أما أن نجحت سوف تملك كنوز لا حصر لها وهذا حقك يا ولدي.

كنت أخفي عليك الأمر حتى لا تهتز صورة والدك أمامك على الرغم من محاولاتي لإثنائه عن القدوم لذلك العمل لكنه

أبن من أبناء الشيطان غلب عليه دمه، أخفيت الأمانة مع الشيخ أبو مصطفي وتركت لك رقم الشيخ عبادة العراف لكي يكونا دليلك فلا تحيد عنهم حتى توصل لمرادك، لا تثق بأحد يا أدم أتبع الخطوات لكن لا تثق مهما كان، لا تدع للشيطان مجال للتغلب عليك فأنت صاحب الدم النقي.

في النهاية أرجوا منك أن تسامحنا على ما أقحمناك فيه لكنى على يقين بأنك قادرا على مواجهة الصعاب كما هي عادتك وأن تدعوا لنا بالرحمة.

السلام ختام

أمك نعمات».

***

لا أنكر أني قرأت تلك الرسالة عدة مرات حتى دلف أحمد للبيت قائلا «لما لم تحرق تلك الرسالة يا أدم؟ »، نظرت له بعد أن وضع على الطاولة قداحته فأمسكتها وأشعلت تلك الرسالة حينها نظر لي مبتسما بعد أن جلس قائلا « الآن نبدأ الحديث الحقيقي».

نظرت له قائلا «نعم أريد أن أعرف حقيقة الأمر».

أشعل سيجارته قائلا «أدم نحن نساعدك فقط من أجل

والدك لذلك لا تعتمد علينا، لكني يا صديق الطفولة معك في أي شيء لكن أعطني الأمان».

ساد الصمت لبرهة من الوقت حتى نهض أحمد ممسكا بذلك الكتاب القديم قائلا «هذا الكتاب القديم هو قصة الفرعون الملعون سطرت صفحاته بيد ملك قبيلة الجان الشيخ السماوي المكلف بحراسة تلك المقبرة القابعة تحت تلك القرية التي عاش فيها والدك وهي مربط الفرس للوصول لما تريده».

كنت سارحا بعض الشيء حتى هممت بالكلام فقاطعني قائلا «سوف أقص عليك حكاية ذلك الفرعون الملعون لكي تعرف من أين تبدأ».

نظرت له قائلا «إذن لتخبرني ما هي حكايته لعل عقلي يهدأ من التفكير الذي يكاد أن يعصف به، لكن أخبرني لماذا اختصت والدتي والدك وعبادة العراف بتقديم المساعدة لي وتحميلكم تلك الأمانة».

اعتدل أحمد في جلسته قائلا «يا أدم والدك على الرغم من كثرة معارفه وأصدقائه كان والدي وذلك الشخص المدعو عبادة هم أقرب الناس له، يأتمنهم والدك على أدق التفاصيل على الرغم من شعوري بعدم الراحة اتجاه عبادة لذلك دعني أقص لك ما قرأته عن الفرعون الملعون ثم نكمل حديثنا

بعدها».

«أنا كلي أذان صاغية يا أحمد».

***

«في عهد من العهود الفرعونية كان هناك ملكا على جنوب مصر معروف بالصارم كما أطلقوا عليه لم يكن يعرف الرحمة أو الشفقة كان شديد العزم قوي البأس لا يهاب أي شيء وكل من أعترض طريقه كان جزائه الموت، خاض من المعارك الخارجية الكثير والكثير حتى ذاع صيته في كل الأرجاء لكن مع قسوته الغير معهودة جعل له أعداء من الداخل حاول الكثير منهم قتله لكن محاولاتهم باءت بالفشل، في يوم من الأيام أشار عليه أحد أتباعه أن يغزو المنطقة الشمالية لمصر ليصبح هو حاكمها والإله الأوحد للمصرين، لكن من الواضح أن الكلام بداخل القصر قد وصل لحاكم المنطقة الشمالية فأعد عدته لغزو الجنوب.

كان الحاكم الصارم دائم اللجوء لكهنة معبده الذين كان لهم الجزء الأكبر في حياته فلم يكن يتحرك إلا بمشورتهم من بعدهم قادة جيوشه، حين علم بما يعده حاكم الشمال قرر أن يستعين بجميع من حوله من أجل صد الغزو والرد عليه بعدها، فأقترح واحدا من الكهنة عليه أن يشيد مدينة صغيرة سرية مخفية عن الأعين يضم فيها أتباعه وكهنته قبل البدء

في الحرب، في وقت زمني قصير قام بأعداد تلك المدينة الصغيرة على أطراف مدينته الكبيرة في وقت قياسي.

وقتها بدأت المشاكل الداخلية تزداد من محاولات قتله للانقلاب عليه حتى تناقصت قواته نتيجة للحروب الداخلية التي خاضها، وقتها كان ملك الشمال يزحف عليه ويبيد كل من يقابله أو يوالي لمملكة الجنوب وحاكمها الصارم، علم الحاكم الصارم بقرب قدوم جيوش الشمال فأجتمع بقادته الذين فضلوا الهرب على أن يواجهوهم متنبئين بالخسارة حتى تدخل أحد الكهان وكان أكثرهم شرا بأن ينزحوا الى تلك المدينة السرية ومن هناك سوف يكون التصرف.

نزح الحاكم الصارم لتلك المدينة الصغيرة التي شيدها يتبعه حاشيته من قادته وكهنته، بعد هبوطهم الى هناك أجتمع واحد من الكهنة معه يخبره بأن ملجأه الوحيد هو الاستعانة بملك من ملوك الجان لحمايته من بطش حاكم الشمال الذي دمر كل ما في طريقه، لم يفكر الصارم في الأمر كثيرا فجمع هذا الكاهن بقية الكهنة استعدادا لمراسم استدعاء ملك من ملوك الجان هو أقواهم وأكثرهم شرا «الشيخ السماوي» هو أسمه، بعد أن قاموا باستدعائه طلب الشيخ السماوي قربان بشري ليزين بدمائها أرض المدينة السرية سرعان ما بدأت حاشية الصارم بقتل الكهنة جميعهم

فأصبحت دمائهم تسيل في أرضها حتى تفاجئ الصارم بأن المدينة قد أحاطت بهالة ترابية ضخمة في نفس الوقت الذي وصل إليه جيش حاكم الشمال كانت الأرض تبتلع تلك المدينة وتخفيها تحت ترابها وقتها لم يصمد الصارم وأتباعه تحت ركام الأرض فماتا جميعا وأصبحت تلك المدينة لا تذكر لكن في حماية الشيخ السماوي وقبيلته».

***

بعد أن استمعت لما قصه أحمد على نهضت من مكاني قائلا له «أذن كيف مات الحاكم الصارم على الرغم من حماية الشيخ السماوي له ولماذا لقب بالفرعون الملعون؟».

نظر أحمد لي قائلا بعد أن أعتدل أكثر في جلسته قائلا «ببساطة شديدة كان الصارم حاكم ظالم لا يعرف سوي الحديد والنار فكان كل من عاهده من العامة يلقبه بالملعون خاصة بعد انتشار قصة استعانته بالشيخ السماوي وقبيلته المعروفة بولائهم الأكبر للشيطان على الرغم من أنهم جان لكنهم أشدهم شرا».

وضعت رأسي بين كفي قائلا «وما علاقتي بكل هذا؟، لا أريد ذلك الميراث فليأخذوه».

أبتسم أحمد وقال لي «أنه قدرك يا أدم ولا هروب من

القدر، لذلك دعنا نستعد لما هو قادم »، ثم نظر الى الصندوق مكملا حديثه قائلا « لا أعرف ما بداخل الصندوق سيساعدنا أم لا لكن دعنا نرتب لزيارة قريبة للشيخ عبادة العراف لعلنا نجد إجابة وافيه لما سوف نلاقيه».

نظرت له متعجبا قائلا له «لماذا عليك مساعدتي يا أحمد فليس لك دخل بالموضوع؟».

ابتسم أحمد قائلا «إنه القدر يا صديقي العزيز هو من جمعنا من أجل أن نخوض تلك المغامرة معا».

***

الفصل الحادي عشر

في رفقة المجهول

المكان: حارة بحي السيدة زينب، الزمان: ظهر يوم المولد.

زاد تفكيري واضطرابي أكثر حين رنت في أذني كلمات أحمد عن القدر مازلت أجلس أمام ذلك الصندوق والكتاب الموضوع على الطاولة خلفي كان أحمد نائما على الأريكة، طرق الباب عدة طرقات خفيفة فهممت بفتح الباب لأجد أحمد قد قام مسرعا ليفتحه حينها دلف الشيخ أبو مصطفي للداخل قائلا «صباح الخير أو مساء لقد إذن الظهر هيا لكي تستعدا لذلك اليوم العظيم يوم مولد السيدة زينب رضي الله عنها وأرضاها بنت الأكرمين وحفيدة سيد المرسلين صلوات ربي وسلامه عليه وعلي آل البيت».

نظر أبو مصطفي لأحمد قائلا «اتركني مع أدم لبعض الوقت وأذهب الى والدتك فهي تريدك أما أنت يا أدم قبل أن نذهب أريد الحديث معك في بعض الأمور».

قد بدا على الإرهاق ناظرا له قائلا «لعله خير بعد كل ما سمعته».

وقف للجهة المقابلة للطاولة ممسكا في يده سبحة قائلا «

يا بني من تلك الليلة أعلم أنك تسير في درب القدر، مهمتنا قد أديناها لك والأمانة بين يدك وما أرادت والدتك إيصاله إليك على ما أعتقد فهمته، لذلك كان على تحذيرك مما هو قادم».

كان لكلامه البسيط أثرا قويا في أنتباهى فقلت له «تحذرني من ماذا؟، أيوجد أكثر مما أنا فيه؟».

نظر الى شباك البيت قائلا «نعم فأنت ستخطو أولى خطواتك في كشف الحقيقة والحصول على ميراث والدك، لكن أعلم أنك ستخوض حربا شرسة ضد عدة جهات لكن هناك حرب أخطر مما تتخيلها سوف تخوضها وهي حربك مع أدم نفسه».

نظرت له بتعجب قائلا «حربي مع أدم.... لا أفهم».

استدار لي ناظرا صوب عيني قائلا «إن أخطر ما يواجهنا نحن البشر هو أنفسنا تلك التي خلقت بكفتي الميزان وأغلبها أمارة بالسوء، فأحذر منها حين تواجهها فأنا على يقين بأنك تحمل في داخلك الفطرة السليمة، أنت الآن في بداية طريقك فكن متأكدا أنك سائر على درب الحق وأنت نفسك صاحب حق لكن ما ستراه لهو درب من دروب الجنون فكن على حذر».

ابتسمت له قائلا « زاد تخبطي يا شيخ أبو مصطفي».

ضحك أبو مصطفي قائلا «لكني على يقين بأنك سوف تعثر على مرادك بدون أن تخسر نفسك، دعنا نلحق ذلك اليوم العظيم لنستمتع بكل ما فيه».

حينها دخل أحمد ليخبرنا ببدء مراسم الاحتفال فهبطنا جميعا من المنزل متجهين لساحة المسجد للحضور حشدا عظيما وأجواء رائعة، لم أشعر بالوقت حتى رأيت ذلك الشخص يقف في الجهة المقابلة كأنه ينظر لي باستمرار طوال فترة الاحتفال لم أعيره اهتمام خاصة أن في تلك الأجواء تتلاقي الوجوه لكني بدأت بالاضطراب حين بدأ في الاقتراب مني ببطء شديد نتيجة للزحام، تلفت حولي لأجد نفسي وحيدا فأقترب مني أكثر فأكثر... تلك الملامح قد شاهدتها من قبل رجل ضخم الجثة قمحي البشرة وجدته يقف أمامي مباشرة قائلا «أستمتع بأجواء الحضرة فلنا حديث بعدها».

تسمرت قدماي فلم أقوي على السير حتى ربت على كتفي قائلا «أخبرتك أن تستمتع».

نظرت له قائلا « من أنت؟»، أدار ظهره لي ثم دلف بداخل الحضرة وبدأ في ممارسة طقوسها لا أنكر أنه لم يغيب عن نظري حتى وجدت يد تضربني على ظهري فوجدته أحمد

الذي أبتسم قائلا «أين أنت؟، تعالي معي كي نشاهد هؤلاء المهرجون في تلك الخيمة».

مرت ساعات حتى قاربنا على الفجر فوجدت الجمع ينفض شيء فشيء حتى لم يتبق إلا أعداد قليلة مازال أحمد يسير معي كما عاهدته في الصغر مشاكسا لكل من حوله عنيدا في قراراته، التفت لي مشيرا بسعادته بذلك اليوم حتى انتبهت لخطوات ذلك الرجل فوقفت مكاني بلا حراك ما أن شاهدني أحمد فسألني عن سر توقفي فلم أكن منتبه إليه فأقترب منى ذلك الرجل أكثر مبتسما لي قائلا « لم تحضر لهنا منذ أحد عشر سنة على الرغم من والدك الذي كان دائم الحضور لذلك الاحتفال العظيم »، مازلت واقفا لا أتكلم فتقدم أحمد بخطوات بسيطة ناحية ذلك الرجل مستفسرا عن هويته فوجدت ذلك الرجل يكمل حديثه قائلا «أعلم أنك لا تتذكرني فلم ترني إلا مرة واحدة لذلك عليك أن تأتي معي» .

وقف أحمد متحفزا فتقدم ببعض الخطوات نحوه فأمسكت يده قائلا «انتظر يا صديقي» فنظرت لذلك الرجل قائلا «وجهك مألوف لكني لا أعلم من أنت فكلماتك غريبة وطريقتك مريبة»، ضحك الرجل قائلا «ألم يلفت نظرك حديثي عن والدك؟».

نظر أحمد لنا قائلا «نعم... نعم لقد شاهدتك من قبل في

حارتنا لكن ما علاقتك بآدم ووالده؟».

مازال ذلك الشخص يضحك وهو يوجه حديثه لي «أعلم أنك لا تعرفني فلم نتقابل سوي مرة واحدة لدقائق معدودة و..........».

«أهلا يا مسعود هل حان وقت أدم للذهاب معك» قالها أبو مصطفي من خلفي فألتفت له فأكمل حديثه قائلا «هذا مسعود خادم الشيخ عبادة العراف يا أدم من الواضح أنه كان يراقبنا منذ أن حطت قدماك أرض الحارة».

« الشيخ عبادة يقرئك السلام يا أبو مصطفي ويخبرك بأنه قادم لزيارتك، أما أنت يا أدم فسوف أتي لكي أخذك لشيخنا ومن هنا سوف تكون محطتك الثانية فالقدر محتوم يا صديقي» قالها مسعود بأن أدار لنا ظهره وسار بعيدا عنا، وقف أحمد متحفزا فقال لوالده «أريد أن ألكم ذلك المتغطرس في وجهه» حينها نظر له أبو مصطفي بحزم وأمرنا بالعودة الى المنزل.

حين وصلنا للمنزل طلب أبو مصطفي من أحمد أن يتركني تلك الليلة وحدي ثم صعدا الى بيتهم وأنا لبيتي أغلقت الباب خلفي بعد أن دلفت للداخل لا أقوى على الحراك فجلست على الأريكة لأريح جسدي، بدأ قلبي يدق بعنف فكان شعوري هو أن كل ما فات هو ليس محض هراء كما كنت

أظن فقد أصبح الأمر واقعا مقدرا لي فمن الواضح أن والدي قد أخفي علينا الكثير والكثير من الأمور، غبت عن الوعي نتيجة للإرهاق الذي تعرضت له خلال اليومين الماضيين لا أعلم كم مر من الوقت حتى استيقظت على صوت صراخ وجلبة كبيرة فقمت لأستكشف ما حدث فوجدت حريق هائل في المنزل المقابل لي، اللعنة أنه منزل أبو مصطفي فهبطت مسرعا لأجد أحمد يقف ساكنا بلا حراك أمام المنزل ومحاولات أهل الحارة لإطفاء النيران حتى وصلت سيارات الإطفاء لتتعامل مع ذلك الحريق.

منذ أن كنا صغارا كان أحمد جامد المشاعر بطريقة تثير عجب من حوله اليوم تأكدت من ذلك حين شاهدته ساكنا ومنزله يحترق بوالديه مرت ساعتين على الحريق والجميع ملتف حول أحمد يواسوه ما أن تقدمت نحوه حتى دفعني بقوة على الأرض صارخا على قائلا «أنت وأسرتك لعنة علينا وعلى الجميع... لماذا أتيت أنت ووالدتك؟ لتجلبوا الدمار والخراب لنا»، فمن هول الصدمة لم أنهض من مكاني حتى شاهدت مسعود يقترب مني ويشد يدي لمساعدتي على النهوض فأكمل أحمد كلامه ملقيا بورقة مطوية قائلا «خذ تلك الورقة كتبها لك والدي، أمامك اليوم لترحل من حارتنا يا ملعون».

نظرت حولي لأجد مسعود بجانبي وسيارة الشرطة تقف على أول الحارة يهبط منها شرطي وخلفه معاونيه حين أقترب أكثر وجدته النقيب حسام، زاد تعجبي ودهشتي أكثر حين رأيته يقترب مني ناظرا لي بتحفظ شديد فوجدت مسعود يجذبني لداخل المنزل قائلا «الآن حان الوقت كي نغادر برفقتي ذاهبين للشيخ عبادة لكن بعد أن يذهب ذلك الشرطي من هنا».

دلفنا الى داخل المنزل فجلست على الأريكة غير مصدق لما يحدث فرأيت مسعود يتجول بحرية في أرجاء المكان حتى توقف أمام الطاولة الموضوع عليها الصندوق والكتاب قائلا «أنه لقدر لعين يا صغيري، أن تكون برفقة المجهول ولا تعرف متى الخلاص».

نظرت له قائلا «إنه قدر صعب وضعني فيه والدي وعلى استكمال المسيرة رغم عني أسير كخفاش متخبط من ضوء باغته فجأة».

مرت ساعة حتى هدأت الحارة كانت الساعة التاسعة مساء فوجدت مسعود يحمل حقيبة كبيرة واضعا بها الصندوق والكتاب فتذكرت وقتها كلام أمي عن الثقة فجذبت تلك الحقيبة من يده فأبتسم لي قائلا «أري أنك تعمل بنصيحة السابقين لنذهب الآن فالشيخ عبادة في انتظارنا».

***

الفصل الثاني عشر

عبادة العراف

المكان: مقابر التونسي، الزمن: منذ ثلاثون عاما -الساعة التاسعة مساءا.

شاب يتجول في أول طريق المقابر باحثا عن شيء ما في وقت غير مستحب، مازال يتجول حتى وجد نورا في أخر الطريق فسار إليه بسرعة حتى وجد باب معدني مفتوح يقف عليه رجل طويل القامة قمحي البشرة على وجهه الجمود يرتدي جلبابا رمادي اللون ناظرا له قائلا « أتبحث عن شيء ما أيها الشاب أم ضللت طريقك خاصة أن الوقت متأخر؟ «.

نظر له الشاب قائلا «نعم أبحث عن الشيخ عبادة العراف فأنا قادم إليه».

تحرك ذلك الرجل خطوتين حتى سد باب المقبرة قائلا «ولماذا تريد الشيخ عبادة؟».

تنهد الشاب قائلا «لقد جئت له بخبر من صديق عزيز ولابد من تبليغه الرسالة».

تعجب ذلك الرجل قائلا «وهل يستدعي مجيئك ليلا وسط

المقابر؟، ألا تخاف؟».

ضحك الشاب قائلا «أن الذي يمشي بنور السماوي لا يخاف، أما الآن أريد مقابلة الشيخ عبادة».

صدم ذلك الرجل من كلام ذلك الشاب فتقدم بخطوات ثابتة يراقب ما حوله فأمر الشاب أن يدخل لساحة المقبرة وهو خلفه ثم أغلق الباب عليهم قائلا «انتظر هنا حتى يأذن الشيخ عبادة لك بالمقابلة».

كانت هناك حجرة بداخل المقبرة تقدم ذلك الرجل لها ثم طرق بابها الخشبي وما هي إلا ثواني حتى دلف للداخل هابطا على الدرج للأسفل مستأذنا بالدخول، كانت الغرفة كبيرة تحتوي على أثاث خشبي قديم يزين حوائطها بعض من جلود الحيوانات المكتوب عليها بلغة غريبة الي جانب بعض من السبح المعلقة ويتوسط تلك الغرفة منضدة متوسطة الحجم عليها مبخرة كبيرة يجلس خلفها شخص أبيض البشرة ذو لحية مهذبة يرتدي جلبابا أبيض.

- «يا شيخ عبادة هناك شاب بالخارج في انتظار مقابلتك».

- «أدخله يا مسعود وانتظر بالخارج فبالتأكيد يحمل لي رسالة مهمة أو يريدني لغرض ما».

نظر له مسعود وكان الخادم الأمين لعبادة قائلا «يا شيخنا

من الواضح أنه حامل لرسالة خاصة لك».

نهض الشيخ عبادة من مكانه أمرا مسعود أن يدخل ذلك الشاب وحده فقط، خرج حينها مسرعا لذلك الشاب فأخبره بأن يدخل فورا للشيخ عبادة فهو في انتظاره، هبط ذلك الشاب بخطوات ثابتة فطرق الباب طرقتان خفيفتان ثم دلف الى الداخل متفحصا للغرفة ومحتوياتها ثم نظر للشيخ عبادة قائلا « أن الذي أرسلني يخبرك بسلام النور، ذلك السلام الذي يضيء للتائهين دروبهم للباحثين عن الحقيقة أمورهم ولحب الدنيا كاشفهم لنعم كثيرة موجودة في المجهول، تحتاج لناصح أمين حافظ لعهده مع أهل المكان من إنس أو جان».

نظر له عبادة مبتسما قائلا « إذن حدثني بما تريد فكلى أذان صاغية».

جلس الشاب على مقعد من كراسي الحجرة قائلا « لقد خرج صاحب العهد الجديد متخبطا تائها على غير هوادة، يريد حياة عادية كباقي البشر لكن لعنة دم الشيطان تسري في جسده لن يهنأ على حياة رغدة سعيدة لتظل تلك اللعنات تحاصره في كل ثانية في عمره «.

جلس عبادة أمامه قائلا «وماذا بعد؟».

قال الشاب ممسكا بيد المقعد قائلا «ليس المطلوب بالكثير وليس باليسير لذلك كن معه حتى يحين الوقت فتصبح كل الأوراق مكشوفة، فقد خرج من موطنه باحثا عن الحقيقة على الرغم مما يظهره لكن في باطنه نار الجحيم الموقدة».

تنهد عبادة قائلا «إذن هو المطلوب والمرغوب من قبل الشيخ السماوي».

وقف الشاب ثم أدار ظهره متجها للباب قائلا «مفتاحه موجود والحل الأمثل غير مرغوب فالنبوءة تقول إن من دماء الشيطان يخرج الدم النقي القادر على الولوج بداخل أسوار المرغوب فكن على الحياد فالمعارك قادمة لا محالة».

تعجب عبادة فنهض من مكانه قائلا «منذ أن أصبحت الوسيط لم أرى سوي الفراغ والسراب فما كان لي سوي التمسك بالوهم على الرغم من صلاحياتي لكن يبقي المنشود هو سر اللغز، الشيخ السماوي لم يحدد لي متى سوف يخرج الدم النقي ولم يخبرنا عن المطلوب».

انطفأت الأنوار الباهتة بداخل الحجرة ليسمع صوتا يقول «تحدث السماوي فسكت أهل الأرض»، اشتعلت نيران المبخرة بصورة جنونية يظهر من ورائها خيال أسود يجلس على مقعد عبادة مكملا حديثه قائلا «صاحب العهد قد تزوج فبدأ العد التنازلي لصاحب الدم النقي فكن على استعداد أيها

الوسيط فالوسطية لك هي أفضل خيار».

هم عبادة بالكلام لكن ذلك الكيان تحدث بصوت جهوري هز حوائط الغرفة قائلا «أعلم أن ذكائك لن يهونك لهذا قدم قربانك وأنتظر حتى تجف الدماء فأنظر تحت مقعدك ولتأخذه كوسيط لك بيننا وبينكم إن حان الوقت».

قال عبادة بصوت يستجمعه الشجاعة «لك ما تريد أيها السماوي لكن لدي سؤال واحد فقط؟».

قال له الكيان بصوت تقشعر له الأبدان «ما هو سؤال الأخير أيها الوسيط؟».

قال عبادة في عجالة سريعة «أعلم جيدا أنك حارس المكان وقبيلتك فكيف لك أن تعقد صفقة مع أبناء ذلك الشيطان وتجعلني أنا متعهدها بل تضع فرسانك في خدمتهم؟».

حينها وقف الكيان قائلا «في الوقت المناسب سوف تعرف يا عبادة فلا تتعجل وكن لصاحب العهد الجديد ملازما ولحاكمة القرية خاضعا، دع الدماء لهم والمراد لنا».

مازال ذلك الشاب واقفا بعد أن أختفي الكيان يهم بالخروج من الحجرة فالتقط عبادة خنجرا من جانب مقعده وامسك بذلك الشاب الذي كان من الواضح أنه منوما فنحر عنقه بلا

أدني شفقة فسالت دمائه على أرض الغرفة فملأتها، نادي عبادة على مسعود الذي هبط على الفور فشاهد ما حدث فنظر له ثم الى جثة ذلك الشاب قائلا « سوف أدفن تلك الجثة وأتي إليك يا شيخ »، فأشار له برأسه فحمل مسعود الجثة وخرج من الغرفة فجلس عبادة على مقعده يتأمل ما حدث فتلك المرة لم تكن الأولى التي يقدم فيها قربانا.

***

«كنت شابا مراهقا في جماعة من الغجر نتجول في كافة الأرجاء، تارة في الشمال والجنوب شرق وغرب حتى أستقر بنا الحال في أحد الأودية الصحراوية القاحلة بالقرب من قرية نائية في صعيد مصر لكننا لم نحاول زيارتها أو التعامل مع أهلها ، كانت مشهورة بيننا بجمالها رغم كبر سنها عني لكن قلبي عشقها دليلة العرافة قارئة الكف وضاربة الودع لكن ذلك ظاهريا لكل من يعرفها أما ما نعرفه نحن فهو أننا نملك سلاحا قويا يسمي دليلة الساحرة التي على الرغم من عشق الجميع لها إلا أنهم يهابونها ما عدا شخصا واحدا يسمي شيخون الذي عشقها للجنون فكل من حاول الاقتراب منها كان مصيره الموت، ما أن أتته الفرصة حتى نال من جمالها الكثير والكثير نتج عن حملها لمولود حينها هربت من تلك الجماعة نازحه لتلك القرية القريبة من مكان تجمعنا،

لم يستطع شيخون أن يلحق بها بعدها بأسبوعين رحل وجماعته لمكان غير معلوم، أما أنا فلحقت بها لفترة حتى أرسلتني للشيخ مرجان للعمل عنده بالقاهرة وما أن أصبحت يافعا حتى بدأت في زيارتها ومشاهدة مسعود يكبر، انقطعت عنها لفترة قبل مقتلها حتى أرسلت في طلبي فذهبت إليها فورا كانت تلازمها تلك الفتاة الحسناء شفاعة التي كانت تتعلم السحر على يديها ابنة موسى حاكم القرية الذي كان معروف ببطشه الشديد وقسوته.

كان لموتها أثرا كبيرا على بعد أن علمت بمقتلها على يد موسى وهروب مسعود من القرية لمكان غير معلوم بعدها قمت بزيارة القرية فأعطتني شفاعة رسالة مكتوبة من دليلة قبل موتها، حين عدت للقاهرة بالتحديد في مقابر التونسي عند شيخي مرجان قمت بفتح تلك الورقة التي كتبت فيها تعويذة تحضير لأحد ملوك الجان يلقب بالشيخ السماوي وطلبها لي بأن أجد أبنها مسعود، لم أكن أعلم السبب وقتها أن تترك لي مثل تلك الرسالة لكنى قررت أن أستغل فرصة نوم الشيخ ومحاولة فهم مغزى رسالتها، بعد عمل التحضيرات اللازمة قمت بقراءة التعويذة المكتوبة في الرسالة.

كأني سحبت لعالم أخر مظلم ظهر أمامي كيان ضخم

بصوت جهوري يقول « ساقك القدر وسحقك البشر فأصبحت أنت الوسيط قدم قربانك لتصلك إجاباتك التي طالما طرحها عقلك وشعر بها قلبك »، لم أتحرك وقتها من مكاني فكنت عاجزا عن الحركة ما أن قال تلك الجملة حتى رجعت الأمور لطبيعتها نهضت وقتها من مكاني مسرعا لأجد مسعود يقف على باب المقبرة حاملا خنجرا فضي اللون ففتحت له على الفور فأخبرني أن أتم الصفقة بقربان بشرى، عقلي توقف عن العمل فشعرت أن هناك من يقود جسدي ويمنعني من الكلام أو التفكير حينها أخذت ذلك الخنجر فدخلت على الشيخ مرجان، قمت بذبحه فسالت دمائه على الأرض فتشربتها كما يتشرب المنديل الماء بسرعة ثم سمعت ذلك الصوت يقول « مرحبا بك أيها الوسيط في عالمي فأنت في حضرتي وحمايتي » ثم أختفي ذلك الصوت مرة أخرى، نظرت وقتها لمسعود الشاب المراهق فضحك لأول وأخر مرة ثم كان لنا جلسة مطولة فهمت فيها كل شيء».

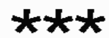
***

هبط مسعود للشيخ عبادة في غرفته بعد أن قام بدفن الجثة فوجده يجلس على مقعده يمسك ببعض الصحائف القديمة مبتسما وهو يقول «بات الأمر وشيكا يا مسعود ولو طالت المدة لكن عن قريب سنسمع أخبارا سارة فصاحب

العهد الجديد قد تزوج، نحن الآن في انتظار مولود له».

نظر له مسعود قائلا «أتقصد محمود أبن موسى؟».

نهض عبادة من مكانه قائلا «نعم هو بعد أن سيطرنا على القرية وحاكمتها يجب علينا أن نضمن محمود في صفنا فكلاهما وجهان لعملة واحدة حين يأتي الموعد ستنكشف جميع الأوراق أما الآن فدعنا نستعد لاستقبال صاحب العهد الجديد».



الفصل الثالث عشر

الحقيقة المرة

المكان: مقابر التونسي، الزمن: مساء يوم الحريق.

وقفت السيارة التي كنت أستقلها بقيادة مسعود في أخر طريق المقابر فهبطنا منها وأنا أحمل لتلك الحقيبة الكبيرة أمام باب معدني لمقبرة تحتوي على أربعة عيون وفي أخر المقبرة غرفة بباب خشبي قديم، تعجبت من تلك الغرفة أن تكون مكان معيشة شيخ مثل عبادة حينها دلفنا للداخل في منتصف المقبرة حينها شعرت أني بداخل فرن موقد لأقصي درجة، نظرت لمسعود الذي تحول فجأة لإنسان ألي حين دلف سريعا لداخل الحجرة وتركني وحدي في منتصف تلك المقبرة وصهدها الغير معتاد على الرغم من عتمة الجو وتلك الإضاءة الخفيفة إلا اني أري كل شيء بوضوح شديد، لا أعلم كم مر من الوقت حين شعرت بأشياء تتحرك حولي فهناك ما يلامس وجهي مع أصوات همس كثيرة تحيط بي، أنتفض جسدي حين أمسكت يدا بكتفي من الخلف فنظرت مسرعا فوجدته مسعود الذي وقف أمامي قائلا «لا داعي للذعر فالشيخ عبادة في انتظارك، لكن قبل هذا أريد أنا أتحدث معك في شيء هام».

نظرت له قائلا بعد أن تمالكت نفسي «وما هو ذلك الشيء الهام؟».

وقف مسعود أمامي قائلا «تلك اللحظة التي سوف تدلف لداخل غرفة الشيخ عبادة سوف تتغير حياتك أكثر مما كانت، ستصبح جميع الأوراق مكشوفة فلتحارب من أجل حياتك ولا تكن مثل والدك فالقدر واحد لكن الفرق بينكم أنه هي مرحلة الاختيار».

تقدمت ببعض الخطوات ناحية الباب الخشبي الخاص بالغرفة قائلا «لم أعد أتعجب من تلك الكلمات الغريبة التي مازلت أسمعها منكم جميعا موت عائلتي ثم موت عائلة أبو مصطفي شعوري بأني في كابوس لا أعلم متى ينتهي، كل ما أعرفه أن هذا القدر سينتهي وأتخلص من أصواتهم في رأسي لأعود لحياتي كما كانت و.........».

قاطعني مسعود في هدوء قائلا «هل تظن أن هناك ماضي يعود؟، أستيقظ على حقيقة ما أنت فيه لا تجعل حياتك هباء لتموت كوالدك و............».

تلك الكلمات الأخيرة كانت بمثابة الصاعقة لي فهممت بالكلام حتى قاطعنا صوت آت من خلف الباب الخشبي يقول «جميل ما تقوله يا مسعود لكن الم يكن الحديث أفضل معي».

نظرت ناحية الصوت فوجدت الباب يفتح ليخرج منه الشيخ عبادة الذي قابلته مرة واحدة في عزاء والدي فتقدمت ببعض الخطوات ناحيته فوجدته مقبلا على قائلا « مرحبا بك يا أدم في منزلي المتواضع كنت أنتظرك على أحر من الجمر »، مد يده ليصافحني فصافحته في برود واضح جعله ينظر لي ثم يكمل حديثه قائلا «اتبعني لغرفتي ليتثني لنا الحديث بحرية بعيدا عن مسعود وخرافاته».

لم أنطق بكلمة واحدة لكنى تتبعت خطواته حاملا تلك الحقيبة التي تحتوي على الصندوق والكتاب متجهين صوب الباب المفتوح، هبط الشيخ درجات السلم فوقفت على الباب أتعجب من ذلك المنظر ثم هبط خلفه حينها طلب منى أن أغلق الباب خلفي وأن أوصده جيدا فكانت إضاءة الغرفة ضعيفة بعض الشيء، جلس أمام تلك المبخرة العتيقة فجلست على المقعد المقابل له قائلا «جئت لك لمعرفة الحقيقة كاملة فقبل وفاة أمي أخبرتني أن أذهب للعم أبو مصطفي ثم لك، فهل أجد عندك إجابات لأسئلتي؟».

أبتسم عبادة لي قائلا «إن كنت تريد الإجابات فلتستمع لي جيدا لقصة بسيطة أعتقد أنها ستفيدك فيما هو قادم».

نظرت له ثم تابعت تفحص الغرفة قائلا «ما على سوى السماع فقلبي يحدثني بخطر يقترب مني لا ذنب لي فيه».

كانت ابتسامة السخرية تعتلي وجه عبادة حين نظر لي قائلا «مازال الفتى المدلل يبكي على اللبن المسكوب، أنصت لي جيدا فما سوف أقصه عليك أعلم أنك قد سمعت بعضا منه قبل لكن حكايتي أنا سوف تكون مكملة لما سمعته وستلاقيه».

تنهدت في استسلام تام ثم أشرت له برأسي أن يبدأ.

***

«كانت هناك قرية نائية في أقصي أطراف الصعيد لم يسمع بها أحد سوى سكانها وبعض سكان القرى المجاورة لها، حاكمها رجلا صالحا محبا للخير ولأهل القرية الذين عاشوا معه في رخاء شديد فيزرعوا ويحصدوا ما شاءوا، في يوم من الأيام حط ثلاثة من الرحالة موسى جدك واثنان آخرون فعاثوا في الأرض فسادا فأطاحوا بالحاكم الصالح للقرية وتولي جدك الحكم بعده فتحولت القرية لمكان مظلم كئيب محكوم بالحديد والنار، تزوج من غجرية جميلة أنجب منها سبع أبناء وبنات ترتيبهم شفاعة، محمود، هدي، محمد، إبراهيم، إسماعيل، عوض.

كان لجدك الكلمة العليا فلم يقبل بشريك له فقتل التوأم ثم بعدها قتل زوجته في تلك الواحة القاحلة التي تقع خلف

منزله الكبير بالقرية كقربان بشرى للشيخ السماوي وقبيلته الذي أمده بجميع العهود الشيطانية وسخر له حراس قبيلته من جان، كبر أبناء موسى وأصبحوا في سن المراهقة فكانت شفاعة كأبيها قاسية القلب متسلطة لا تعرف للرحمة عنوان في ذلك الوقت ظهرت دليلة العرافة الغجرية في القرية مع ابنها مسعود الذي وقع في براثن شفاعة وصداقة محمود، وقتها كنت أزور دليلة بين الحين والأخر حتى أعطتني مفتاح التواصل مع الشيخ السماوي فأصبحت حلقة الوصل بينه وبين موسى، في ليلة جاء أحد حراس القبيلة حاملا بصندوق ضخما طالبا منى توصيلة الى مرسي وبالفعل أرسلت له فحدد موعدا كانت تلك هي الليلة القبل الأخيرة في حياة ذلك الأحمق، ذهبت له برفقة الحراس وأعطيته ذلك الصندوق بعدها بيوم علمت بخبر وفاته وهروب أبنه الأكبر ثم تولى شفاعة مقاليد حكم القرية».

نظرت له متعجبا فقلت له «إذن جدي كان سبب كل ما حدث لكن لدي أسئلة أريد طرحها».

أبتسم لي عبادة قائلا «سوف أجيبك على بعض من تلك الأسئلة قبل أن تطرحها حتى لا نطيل الوقت في سرد أحداث سوف تعرف خباياها قريبا، أن الرحالة يا ادم ما هم إلا حفنة من المرتزقة لا عنوان لهم ولا وطن يرحل كل واحدا

منهم مع نفسه يبيعون أنفسهم للشيطان مقابل حفنة من الأموال، موسى كان واحدا منهم حين كان ينقب في أحد الأماكن عثر على صندوق صغير يسمي بصندوق العهد الذي فتح له المجال مع الشيخ السماوي فعرف سر قرية الخير وما تحتويه أرضها لهذا قرر الرحيل الى هناك والاستيلاء على ما تحتويه، حين أصبح حاكم للقرية تخلص من أتباعه من الرحالة لكي لا يتيح لأحد منهم الفرصة في التخلص منه والاستيلاء على ما هو موجود بالمقبرة، نعم مقبرة فرعونية للحاكم الصارم الذي هرب فيها من هجمات حاكم الشمال وأغلق عليهم السماوي لحين وافته المنية، تلك المقبرة تحتوي على أحد أهم كنوز العالم التي لا تقدر بمال وهو كأس الشيطان أو كما قيل لي كأس الفرعون الملعون وبعض من صحائف الكتاب المحرم الى جانب الكثير من الثروات التي أخذها الحاكم الصارم وأتباعه في ذلك المكان المدفون تحت القرية، أما سبب تخلص موسى من زوجته كان بسبب كشفها لحقيقة الأمر فيومها ضاجعها بعنف فلم تتحمل أفعاله العنيفة فحاولت الهروب لكنه تمكن منها فنحر عنقها في الوادي القاحل خلف المنزل، أما سبب قتله لدليلة كان لمساومتها له على بعض من الثروات المدفونة فهي عرافة وساحرة قوية لكنها لم تصمد أمام بطشه فتخلص منها بحجة مضاجعة أبنها لأبنته مع العلم إن مسعود كان صديقا

لوالدك قبل هروبه للقرية».

أصبحت الدهشة تعتليني حتى لاحظها فحاولت استجماع شتات نفسي قائلا «إن كان جدي هو السبب فما علاقة ذلك بعائلة والدي وأنا؟».

قال عبادة وهو يعبث في المبخرة «موسى لم يكن غبيا يا أدم فكانت خطواته محسوبة ومدروسة، حين علم بنبوءة الحاكم الصارم وتأكد من وجود تلك المقبرة أو المدينة الصغيرة التي بناها وبنيت عليها قريتكم كان عاقد العزم على اكتشافها ونهب ما فيها، لكن لا أعلم كيف عثر على الشيخ السماوي أو عثر عليه لا يهم المهم هو أنه تأكد من النبوءة فكان يظن أنه سوف يحيا لحين الكشف عنها لكن القدر لم يمهله فترك ذلك الصندوق لأبنائه كي يتثنى لهم الحصول على ذلك الميراث الدموي الملعون، بعدها هرب والدك من القرية وأصبحت علاقته بالقرية معدومة».

حينها حاولت مباغتته بسؤال كان عقلي يطرحه على طوال الوقت لكنه لم يمهلني الفرصة فأكمل حديثه قائلا «منذ أن وطأت قدم جدك لأرض القرية كان يحمل في عروقه دم الشيطان الملعون فكلما قدم القرابين كلما زادت اللعنات عليه فطبيعي أن يحملها نسله منه، أما عن المقبرة المدفونة فالنبوءة تقول بأن ظهور باب الصارم مقرون

بولادة طفل يحمل دماء نقية قادما من صلب الشيطان فيصبح الطفل شابا فيأخذ راية السابقون في حماية الحارس وأتباعه والقربان دماء عذراء صغيرة لم تبلغ الحيض بعد، أما وقت الظهور فهو موجود منذ الولادة لكن لا نعلم مكانه ولا ميعاده».

نهضت من مكاني قائلا «إذن ما فائدة تلك اللفافات والكتاب الغريب؟».

نهض الشيخ عبادة من مكانه قائلا «تلك اللفافات ما هي إلا خريطة واحدة تحمل أسم مكان تاريخي موجود الى الآن، مهمتك أن تجمع تلك الكلمات لتحصل على مرادك حينها ستكشف جميع الأوراق أمامك وتكون قادرا على اتخاذ القرار، لكن عليك بتوخي الحذر دائما في كل خطوة لك فالقادم مرعب».

دخل مسعود للغرفة مقتربا من عبادة ثم همس في أذنه فأشار له بالخروج ثم نظر لي قائلا «أعلم أنك لم تتحدث منذ مجيئك ومازالت هناك أسئلة تدور في ذهنك، لكن أريدك أن تلحق بمسعود لتنل قسطا من الراحة وغدا سوف نتحدث ونتعلم الكثير».

نهضت من مكاني ممسكا بالحقيبة فنظر لي عبادة نظرة بأن أترك الحقيبة هنا في أمان لكني لم أبالي فأمسكتها

مرة أخري بين يدي ثم صعدت لألحق بمسعود الذي كان يقف بجانب الباب الخشبي للغرفة قائلا «تلك هي البداية الحقيقية، تعال معي لتستريح من عناء اليوم وفي الصباح الباكر سأخبرك بعدة أشياء كنت قد عاهدت نفسي أن أقصها على نسل محمود أبن موسى وها قد حان الوقت» ثم أشار الى أحد الغرف الخشبية قائلا «اذهب لتلك الغرفة ونل قسطا من النوم وحين تستيقظ سأكون بانتظارك».

نظرت لمسعود قائلا «أتؤمن بما يقوله الشيخ عبادة عن النبوءة والدم الملعون، عن ميراث شر قادم من الشيطان ذاته، فكيف أكون من نسل الشيطان وأحمل دما نقيا عنهم أليس الأمر غريب بعض الشيء؟!».

نظر لي مسعود ثم أدار ظهره لي قائلا «لم نولد لمعرفة أو اختيار أقدارنا بل فرضت علينا منذ أن تنفسنا لذلك يا عزيزي كن واثقا أن كل ما يحدث لهو مكتوب في صحائفنا مع بعض التغييرات البشرية البسيطة، الآن فلتخلد الى النوم».

الفصل الرابع عشر

وسيط الشر

- الساعة السابعة صباحا في مقر الشيخ عبادة بمقابر التونسي.

استيقظت فزعا أتصبب عرقا من ذلك الكابوس الذي بات ملازما لي، فوجدت مسعود يجلس على مقعد متهالك أمام السرير ينظر لي في جمود نهضت متسائلا عن سر جلوسه بتلك الطريقة المريبة فلم يجيبني مما زاد توتري، شعرت كأني مكبل الفم والجسد أمام جلسته فما أن تقدمت خطوة فوجدت صوت الشيخ عبادة من الخارج يستدعي مسعود الذي نهض بعد أن أشار لي أن أتبعه بعد أن اغتسلت في حوض المياه المكسور بجانب السرير، حين دلفت خارج الحجرة وجدت الشيخ عبادة يقف مع مسعود مبتسما وهو يقول «أمازال ذلك الكابوس يطاردك؟».

تملكتني الدهشة والحيرة فكيف عرف بأمر ذلك الكابوس فتقدمت ناحيتهم فوجدت عبادة يشير لي بأن أتبعه لداخل حجرته فهبطنا للداخل فوجدت الإضاءة قد تحسنت فأصبحت الرؤية واضحة للغرفة، الأربع أركان جميعها مزين بجلود لحيوانات مكتوب عليها رموز وحروف غريبة الى

جانب أربعه لرؤوس حيوانات محنطة، الأرض عليها رمز لنجمة سداسية لا تستطيع رؤيتها إلا أذا دققت فيها مع منضدة متوسطة الحجم عليها تلك المبخرة النحاسية التي استطعت تميزها ليلة أمس وأريكة كبيرة خاصة بعبادة الي جانب أربع كراسي خشبية كبيرة الحجم، خمس دقائق مرت على وجودنا حتى وجدت مسعود يطرق الباب ليدخل في يده الحقيبة ليتركها ويرحل.

- «الآن يا أدم قبل أن نبدأ هل تود أن تخبرني بشيء؟».

- « قبل أن نبدأ ماذا؟، أنت لم تخبرني عن أي شيء سوي قصص وحكايات كالتي أقرأها في الكتب وأسمعها وأشاهدها في التلفاز، أعلم أن القدر ساقني لأمر جلل وأنت الآن دليلي يا شيخ عبادة فماذا بعد؟».

- ابتسم عبادة قائلا «معك كل الحق فأنت مازلت صغير السن لكن ساقك القدر لأمرا سيغير مجري حياتك لهذا دعني أشرح لك الأمر ببساطة شديدة، أنت الآن الوريث الشرعي والوحيد لمحمود أبن مرسي ووالدتك هي نعمات بنت تاجر الأخشاب الشهير بالإسكندرية إذن أنت هو صاحب الدم النقي القادم من صلب دم الشيطان ، يطلقون على ميراثكم ميراث الشر الملعون لأنه خاص بواحد من أشرس حكام مصر وأكثرهم بطش وقسوة، ستواجه أشد أهل الأرض شرا

وهم عائلتك على رأسهم شفاعة ستفعل المستحيل لتأخذ منك ما تريده، مقابلتك مع الشيخ السماوي لإتمام عهد والدك معه لتصبح أنت صاحب العهد الجديد، أخطر ما ستواجهه هي مواجهتك مع نفسك لكشف حقائق غائبة عنك لذلك توخي الحذر والحيطة من كل ما حولك بما فيهم أنا فان سنحت لي الفرصة سوف أقتنصها».

كلماته كالرصاص تخترق جسدي لا أعلم ماذا أقول له وماذا أفعل؟، فالحقائق قد كشفت لي عن أوراقها لكن مازالت تلك الأسئلة تدور في ذهني عن فائدة ذلك الميراث وإن كان شرا حقا كما يقول فلماذا لا نتركه مدفون في قاع الأرض؟، نظرت له بعد أن حاولت جمع شتات نفسي قائلا «إذن أخبرني عن محتوي تلك المقبرة أو المدينة كما تزعم، هل تعتقد أن ما فيها يستحق كل هذا؟».

نظر لي عبادة قائلا «إجابة ذلك السؤال مع الشيخ السماوي حين تتم عهدك معه فيكشف لك عما بداخل ذلك المكان».

- «هناك شيء أخر استوقفني في حديثك، لماذا تخبرني بأنها مقبرة ثم تعيد الكرة بأخباري بأنها مدينة».

أبتسم عبادة لي قائلا «كلامك صحيح بالفعل لا أعلم إن كانت مقبرة أو مدينة وخير من يجيب على سؤالك هو الشيخ السماوي».

- «إذن المفتاح هو الشيخ السماوي، إذن ما هو دورك في كل هذا».

مازالت الابتسامة على وجهه فنهض من مكانه ممسكا بكتاب غريب الشكل قديم كأنه مصنوع من جلد حيوان قائلا وهو يتصفحه «ألا تريد أن تخبرني عن ذلك الكابوس يا أدم».

- «لن أسألك كيف عرفت بأمر ذلك الكابوس فبالتأكيد تعرف تفاصيله».

ضحك عبادة ثم مد يده لي بذلك الكتاب الغريب طالبا مني تصفحه، أمسكت من يده ذلك الكتاب أتصفحه لمدة ساعتين ولا أستطيع فهم أي شيء فهو مكتوب بلغة غريبة لا أعلم ما هي فوضعت الكتاب على المنضدة فوجدته ينهض من مكانه قائلا «أعلم أنك لم تستطع قراءة ما في ذلك الكتاب لذلك سأعلمك تلك اللغة التي من خلالها سوف تسهل عليك عناء ما سوف تقابله كما تسهل عليك قراءة أي مخطوطة بأي لغة كانت».

***

«مازال ذلك الحلم يراودني أري فيه مكانا كبيرا كأنه صحراء قاحلة يتوسطها بيت ضخم من الخوص والطين

يجلس أمامه والدي وأخوته ما عدا عمتي الكبيرة شفاعة وهم يتحدثون بلغة غير مفهومة ثم تظهر هي بمنظرها القاسي على الرغم من جمالها وسنها الذي لا يصدقه أحد تأمرهم بأن ينهضوا من أماكنهم لتشير بيدها خلفهم رجال ملثمين ليتجهوا إلى ذلك الباب ثم يقفوا عنده في ثبات وجمود تام.

تقف خلفهم شفاعة قائلة «للمجد أتينا وللمجد نحن أهله، بقوة أهل الدار وببركة الشيخ السماوي وبكل أل بيته من مريدي أهل بيت العظيم الأكبر، فلتفتح لنا باب النجاة ولتلقي علينا بنورك كي تغمرنا السعادة الأبدية وللنعم بمقدساتك إلى أبد الآبدين، لتقبل قرابيننا ودمائهم الطاهرة لتروي بها أرضك ولينعم به أتباعك من بعدك يا صاحب المجد الأعظم».

فتنشق الأرض عن فتاة صغيرة لا أتبين ملامحها يحيط بها أربع رجال ضخام الجثة ملثمين الوجه ثم يحملونها إلى ذلك الباب تتوسل إليهم بصوت واهن ألا يقتلوها فمازال أمامها من العمر الكثير، من خلفهم تأتي شفاعة بسكين ضخم لتنحر عنقها في برود شديد مع صرخات تلك المسكينة الصغيرة ورائحة عطن تعم المكان ثم تتركها أمام الباب حتى يتحول إلى كتلة من اللهب، لكن تلك المرة أتقدم أنا لأضع يدي على

ذلك الباب ليفتح لأري فيه كيان أسودا ضخم يقف على الدرج ينظر لي قائلا: يا صاحب العهد أقم شعائرك وأنتشي من كأس الخلود.

فنظرت خلفي لأجد الحراس الملثمين يمسكون سبعة رؤوس في أيديهم ثم قالوا في صوت عال «أقم شعائرك يا صاحب العهد فالكأس لك والخلود قدرك فلا وسيط اليوم بينك وبين مرادك»، لكن ما أفزعني أني هبطت وتجولت بأرجاء المقبرة التي كانت أشبه بمدينة صغيرة فهناك من كان يمسك الكأس يتجرع منه وسيف يغمد في قلبي لا أعلم من أين أتي».

***

نهضت فزعا كعادتي من ذلك الكابوس لكن تلك المرة لم أجد فيها مسعود يجلس كعادته أمام السرير فخرجت لأستكشف الأمر فوجدت المكان مغلق برمته وكأنه مهجور منذ سنين، الساعة الثالثة فجرا بدأت في تفقد المكان فوجدت عينا من العيون الأربعة مفتوحة على مصراعيها وهناك ضوء خارج منها فقادني الفضول الى هناك فوجدت مسعود يمسك بسيدة عجوز ويقف أمامها عبادة يتكلم بلغة غريبة ثم يقوم بنحر عنقها وما أن رأيت ذلك المشهد حتى فزعت فتراجعت خطوتين للخلف لأجد من يقول «مرحبا

بوسيط الشر».

لأجد مسعود يحمل الجثة على كتفه ليخرج من العين ثم ألقاها في عين أخري مفتوحة كأنه يلقي كيسا من القمامة بداخلها ليقف لبعض من الدقائق ثم يغلق العين التي خرج منها على عبادة، حاولت أن أرجع الى داخل الحجرة فوجدت مسعود يقول لي «لا داعي للذعر يا أدم فذلك المشهد سوف يتكرر أمامك كثيرا وقد تكون أنت من يقدم القربان»، حينها تحرك ناحية غرفة عبادة فتتبعته قائلا «هل ما رأيته حقيقي؟».

استدار مسعود ليصبح في مواجهتي بعد أن توقف عن السير قائلا «نعم يا أدم كل ما شاهدته حقيقي، أرجوا أن توفر أسألتك حتى يخرج الشيخ عبادة وليكن ما تريد».

نظرت له في تعجب واضح على قسمات وجهي قائلا «من هو وسيط الشر».

حينها فتح مسعود باب الغرفة وهبط الى الداخل فتتبعته بنظري حتى غاب فسمعت صوتا يأتي من خلفي يقول «أنا وسيط الشر».

***

الفصل الخامس عشر

فتاة الشيطان

- في قرية الخير في أقصي أطراف الصعيد، منذ ما يقرب من خمسة وأربعون عاما وأكثر.

في منزل الحاكم الذي يقع أمام ذلك الوادي القاحل كانت تجلس الزوجة في البهو تدندن بصوتها العذب بعض الألحان حين جاء موسى من الخارج خلفه أتباعه يأمرها بأن تصعد للطابق العلوي لكنها لم تنصاع لأوامره فأمر رجاله بالخروج، وقف أمامها ساكنا لم يتحرك على الرغم من غضبه أما هي فلم تهتم لوجوده فنهضت من مكانها ولا زالت تدندن تلك الألحان التي طالما تعود الجميع على سماعها فأدارت ظهرها له قائلة «إن الكثير من الأسرار قد تكشف في غمضة عين فما صحة تلك المقولة يا عزيزي؟».

نظر لها موسى بثبات وجمود غير عادي فأكملت حديثها قائلة «لا أحد يعرفك مثلي فبعد ما شاهدته أصبح الحق لي أن يكون نصيبي فيما تقوم به يكون لنصف ما سوف تخرجه من تحت تلك القرية الوضيعة».

مازال موسى يقف في جمود ناظرا لها حتى همت بالكلام فجذبها من شعرها قائلا «تعلمي جيدا أني رجل لا أقبل

المساومة فلا تظني أنك تعرفين شيء فالموضوع أكبر من عقل غجرية فاجرة مثلك جئت بها من مستنقع الوحل وجعلتها زوجة لحاكم القرية».

ضحكت الزوجة بسخرية كبيرة حتى علا صوتها قائلة «رحال يسب غجرية، نحن من نفس المستنقع يا عزيزي لكن الفرق الوحيد هو أنى عشت في جماعة لها قوانين وأعراف».

ضحك موسى ضحكة شيطانية جعلت جسدها يرتجف قائلا «صدقتي لذلك كان تقديمك قربان من أجل الغاية أمرا واجبا، شفاعة».

هبطت فتاة يافعة يكاد يكون عمرها الخامسة عشر سنة بيضاء البشرة ذات شعر أسودا كسواد الليل متوسطة القامة ترتدي جلباب أسود في يدها خنجرا فضي اللون، تقدمت بخطوات ثابتة نحو والدها الذي التقطه منها سريعا قائلا «سوف تأتي معي لتشهدي ميلاد فجر جديد للعائلة»، حاولت الزوجة الهروب لكنها تعثرت في الأرض فأمسكها مجددا بأحكام ثم قادها لخارج المنزل تتبعهم شفاعة بخطوات ثابتة ، كان الليل قد خيم بشباكه على السماء ما أن وصلوا الى الوادي القاحل خلف المنزل حتى كبل مرسي زوجته أمام شفاعة قائلا «أنت تربية أبيك لذلك فضلتك عن باقية أخوتك لهذا أريدك أن تشاهدي بداية عهدا جديدا مع قبيلة الشيخ

السماوي».

ظهر عشرة فرسان ملثمين متشحين بالسواد يلتفون في دائرة يتوسطها موسى وزوجته وشفاعة، بدئوا يرتلون كلمات من الواضح أنها تعويذة استحضار لشيء ما حينها نحر موسى عنق زوجته التي ظهر على وجهها قسمات الخوف والذعر فبدأت الأرض تتشرب الدماء بطريقة مفزعة لم تتحرك وقتها شفاعة من مكانها بل نظرت لأبيها نظرة المنتصر كأنها لم تكن أمها، حينها ظهر كيانا ضخما اسود اللون يقول «ما كان قد كان وولى، فقد بدأت العهد وأصبح كل شيء مباح»، أختفي ذلك الصوت فنظر موسى لشفاعة التي بدورها أدارت ظهرها متجهة الى المنزل، شفاعة لم تكن طفلة عادية كباقي اشقاءها فكانت مميزة لدي والدها كثيرا حتى أصبحت الكلمة العليا لها بعده على الرغم من صغر سنها خاصة أن وضعها في المنزل قد تغير بعد وفاة أمها على يد أبيها.

***

كان أهالي القرية يعيشون في رعب أكثر مما كانوا حين حطت دليلة العرافة وأبنها مسعود ضيوف على قريتهم برعاية حاكمها خاصة أنه كان يمنع دخول الغرباء، كانت الحياة هادئة في القرية لا جديد فيها يخيم جو الكآبة على

أجوائها فالخوف كان عنوانهم حين تدق الساعة الثامنة مساءا لا تري أي مخلوق في الشارع، لكن ذلك القانون لم يكن يسري على شفاعة التي كانت تتجول بحرية في أي وقت تريده مارة ببيت دليلة العرافة وأبنها، ذلك اليوم حين شاهدت والدها يدخل بيت دليلة العرافة كاللصوص فظنت أن هناك علاقة بينهم على الرغم من معرفتها بطباع أبيها القاسية فبدأت كل ليلة تتبعه حتى لاحظها لكنه لم يهتم، في أحد الليالي كانت تراقب أبيها فوجدت يد من الخلف تمسكها رغم طبيعتها القاسية كأبيها فزعت من الموقف فوجدت أنه مسعود أبن دليلة ، سألها عن سر مراقبتها لوالدها فكان ردها يتسم بالجرأة حين أخبرته بشكها أن والدها يقيم علاقة مع دليلة فغضب مسعود من كلامها فأخبرها أن هناك عمل مشترك بينهم لا يمكن الإفصاح عنه فنظرت له شفاعة ثم أدارت ظهرها متجهة الى بيتها.

عاد موسى فجرا فنادي على شفاعة أكثر من مرة حينها أستيقظ بقية الأبناء من هول صوته، هبطت شفاعة ببرود شديد من الطابق العلوي آمرة أشقاءها بالعودة الى النوم ثم نظرت لأبيها قائلة «أعلم لماذا تريدني لكني لم أكن أعلم أن ذوقك متدني حتى تضاجع العرافة».

ابتسم موسى قائلا «أعلم أنك لست بهذا الغباء أن تظني

أني قد أضاجع تلك العاهرة دليلة، دعيني أقص عليك قصتها لعلك تفهمين المنشود و........».

قاطعته شفاعة ببرود جالسة على المقعد المقابل له قائلة «إن وجود دليلة ليس محض صدفة بالتأكيد لها دورا معيننا غير ذلك أنت لا تسمح للغرباء بدخول القرية».

ضحك موسى بشدة قائلا «ألم أقل لك أنك ابنة أبيك، بالطبع فدليلة ساحرة قوية أرسلها القدر لي لنكشف ما موجود بباطن الأرض بمساعدة الشيخ السماوي وقبيلته».

نظرت شفاعة لوالدها قائلة «كان الشيخ السماوي حارسا للمكان وقبيلته فلماذا لم يأخذ ما يريده منها بسهولة؟».

أعتدل موسى في جلسته قائلا «إنه العهد يا شفاعة حرم عليهم انتهاك حرمة المكان لذلك عقدت الصفقة معه لعلي أكملها قبل أن أموت».

نظرت شفاعة لوالدها قائلة «إذن لا عهد للغرباء بيننا، فماذا تريد مني أن أفعله؟».

قال موسى « كل ما أريده منك أن تلازمي دليلة لتتعلمي منها كل شيء خاصة أن محمود قد أصبح صديق لمسعود».

نظرت شفاعة في تعجب قائلة «محمود أخي صديق

لمسعود كيف هذا؟».

نظر لها موسى قائلا «لا يهم فكله يصب في مصلحتنا ما أريده الآن هو أن تتعلمي وتصبحي أفضل من دليلة فتلك الساحرة لا أثق بها ولا أريد أن تطول جلستها.».

***

كانت شفاعة كأبيها جامدة المشاعر قاسية القلب الحكم عندها للعقل المليء بشر أباها، مرت سنوات على وجود دليلة وملازمة شفاعة لها حتى تعلمت جميع فنون السحر على يدها في نفس الوقت كانت على علاقة آثمة بمسعود فبدأ أهل القرية الحديث عن ذلك الأمر، عندما علم موسى بذلك الأمر قرر طرد دليلة من القرية وولدها فذهب لها في وقت متأخر من الليل يطلب منها الرحيل في نفس الوقت كان مسعود نائم في الغرفة المجاورة فسمع حديثها.

بدأت الأصوات تتعالي حين قالت دليلة لموسى « أعلم أنك تريد منى ترك المكان بعد أن علمت بموضع البوابة التي تؤدي الى المقبرة، لكنى لم أطلب منك شيء سوي حصة من تلك الكنوز الذي ستؤول لك في المستقبل أنت وأولادك ».

ضحك مرسي قائلا «أيوجد للغجر حق في الحياة ما أنتم إلا حفنة من العبيد، تذكري أني أبقيت على حياتك على الرغم

من فعلة أبنك المشينة مع أبنتي».

نهضت دليلة من مكانها قائلة «نحن وجهان لعملة واحدة يا صديقي لذلك دعنا نتفق و.......».

باغتها موسى من الخلف مقيدا يديها بأحكام ثم اصطحبها للخارج حتى وصلا للوادي القاحل خلف منزل موسى كانت دليلة تقاومه فما أن وصلا حتى ألقاها على الأرض فهمت بالهجوم عليه إلا أن خنجرا عاجلها بضربة من الخلف في ظهرها سريعا ثم نحر عنقها، وقف موسى متعجبا مما حدث فوجد شفاعة أبنته هي الفاعلة قائلة «الآن حان الوقت لكي يظهر لنا السماوي ليخبرنا بما هو قادم»، مر وقتا على انتظارهم حتى قاربت الشمس على الشروق فعادا الى بيتهم ليجد مرسي رسالة محفورة على الطاولة تقول «ليكن ما تريد يا صاحب العهد فقد أحكمت الصفقة وصرت أنت ونسلك من أبناء الشيطان في حمايتنا لحين الميعاد، فأنتظر الوسيط».

نظرت له شفاعة في تعجب واضح على قسمات وجهها تسأله عن معني تلك الرسالة فضحك مرسي قائلا «نحن نسير على الطريق الصحيح لذلك أعتمد عليك فيما هو قادم فلا أمان لواحد من أخوتك سواكي خاصة محمود، لذلك توخي الحذر منه فلا أمان أو ثقة في أحد سوى نفسك».

***


ساحر الكتب

الفصل السادس عشر

على الدرب نسير

- ثلاثة أشهر في مقر الشيخ عبادة بمقابر التونسي.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل كنت جالس بجوار مسعود في غرفة عبادة في انتظار ذلك الاختبار المزعوم عقده لي، مر أكثر من ثلاثة شهور كنت أتدرب على فك الطلاسم الفرعونية الخاصة بالمقابر بجانب تلك اللغة الغريبة التي خطت بها بعض من الكتب التي كنت أقرأها من مكتبته أو بمعني أدق كان يتعمد يتركها لي، لم يستغرق الأمر الكثير فدراستي كانت في الآثار الفرعونية فتعلمت اللغة الهيروغليفية منها لكن ما تعلمته على يد عبادة يختلف اختلافا كليا فهدفي أصبح مرئي نصب عيني لكن لا أعلم من أين البداية؟.

دخل الشيخ عبادة الغرفة قائلا «بالتأكيد تنتظر الاختبار أليس كذلك؟».

نظرت له قائلا في تحد واضح « أنا جاهز لأي اختبار لكن قبل كل هذا لابد لك أن تجيب على أسئلتي التي أريد معرفة أجوبتها».

ابتسم عبادة فأشار لمسعود بالخروج من الغرفة قائلا «لك ما تريد يا أدم فالليلة هي الأخيرة لك فأسأل ما شئت فأن خرجت من هنا بدأت الرحلة الأخيرة».

اعتدلت في جلستي قائلا له «هي عدة أسئلة أريد الجواب عليها، أولا لماذا صممت على تعليمي فك الطلاسم الفرعونية بجانب تلك اللغة الغريبة التي قرأتها في تلك الكتب التي تركتها لي، ثانيا تقول لي أن بخروجي من هنا ستكون رحلتي الأخيرة مع العلم أني لا أعلم ماذا أفعل حين أعود لحياتي الطبيعية بجانب أنك لم تقل لي عن ما بداخل الصندوق وفائدته لي، ثالثا لماذا لم تسمح لمسعود طوال تلك الفترة بالحديث معي على الرغم من محاولاته للحديث لكن حين يسمع صوتك أو يشاهد قدومك يصمت، أما السؤال الأخير رأيتك تذبح ٩ أشخاص على مدار الثلاثة أشهر ثم يأخذهم مسعود ليلقي بهم في العين المجاورة لتغلق على نفسك لفترة زمنية لتخرج كأن شيء لم يكن لماذا؟».

تحولت ابتسامة عبادة لي لنظرة عبوس قائلا «لا مانع لدي أن أجيبك على أسئلتك على الرغم من اندفاعك وتهورك في الحديث معي لكن معك كل العذر فأنت شاب في مقتبل العمر لذلك دعني أجيب عليك تفصيليا لأخر مرة ولا حديث بعدها في أي من تلك الأمور، لقد أعددتك جيدا لتجيد قراءة

الرموز والطلاسم لتستطيع حل أي شفرة قد تقابلك في رحلتك أما عن الكتب فهي لتعزيز معلوماتك ومساعدتك في القراءة المتعمقة ليكن خروجك في الرحلة الأخيرة سهل بعض الشيء نظرا لما سوف تواجهه فأنت في مواجهة أبناء الشيطان خاصة شفاعة بجانب أخوتها ثم تعاونك مع الشيخ السماوي لتفتح باب السرداب المؤدي للمقبرة أو المدينة ، أما ما بداخل الصندوق فهي سبعة لفافات كل لفافة بها جزء من الخريطة المؤدية لمرادك معك منها أربعة وبقي ثلاثة مع شفاعة، أما منعي لمسعود من الحديث معك هو أن دوره قادم فلا داعي للعجلة فلديه الكثير من الأسرار التي ستفيدك في ما سوف تواجهه، بقي سؤالك الأخير فلا إجابة عليه سوي ما قلته لك أنا وسيط للشر».

كلماته على الرغم من بساطتها لكنها كانت حادة سببت لي إزعاج واضطراب شديد فأن كان فعلا وسيطا للشر كان الهلاك عنواني فكيف أثق بذلك الشخص على الرغم من وصية والدتي لي بأتباع ما سوف يمليه على، فالشك والقلق أصبحا يلازماني منذ أن كنت بالحارة بجانب تلك الأحداث التي أمر بها.

نهض الشيخ عبادة ملقيا بحقيبة متوسطة الحجم قائلا «أفرغ ما في الصندوق بتلك الحقيبة لتصبح جزء من جسدك

لا تفارقه ما أن وصلت للمنشود فأجمعهم لتجد مرادك ويرتاح قلبك بقي شيء واحدا أريد أن أخبرك به على الرغم من صغر سنك وعدم خبرتك في الحياة».

قلت له بصوت انفعالي «ما هو ذلك الأمر الذي تريد أخباري به؟».

وقف عبادة ناظرا صوب عيني مما أريكني بعض الشيء قائلا «عند خروجك من ذلك المكان ستكون بدايتك الحقيقية بداية رحلة الخلاص أما أن تشقي بقية حياتك وتموت أو تنعم ليوم الحساب عليك أن تختار وجهتك فالأمر غاية فالصعوبة، الخسارة والفوز واردة في رحلتك لكني أثق بأنك ستفوز بما هو مقدر لك فلا تحيد عن طريقك فأنتبه لا تخسر فالخسارة يعني الموت، شفاعة تلك الأفعى السامة كان على أن أحذرك منها لكن من الواضح أن لديك خلفية كبيرة عنها وهي من تحمل باقي اللفافات فأختر أما مواجهتها أو الانضمام لصفها فلك ما تريد».

نهضت في تعجب على وجهي لاحظه عبادة فقلت له «شفاعة هي عدوى فكيف تخيرني بالمواجهة أو الانضمام لها؟، أليس ذلك الأمر غريبا خاصة أن أغلب اللفافات والكتاب بحوزتي».

نظر لي عبادة في غضب واضح قائلا «يكفي من الأسئلة ما

عرفته يا أدم أما الآن فأذهب فالرحلة قد بدأت».

ساد الصمت لدقائق معدودة حتى بدأت في سماع أصوات صراخ مكتومة يليها ارتطام كبير فوجدت مسعود يدخل للغرفة فيشير له عبادة ليجذبني من يدي متجهين للخارج، التقطت تلك الحقيبة التي تركها لي عبادة بعد أن أفرغت ما في الصندوق فيها واتجهت للخارج مسرعا، حين دلفنا لداخل السيارة وجدت أن حريقا شب بالمقبرة ليتحرك مسعود على الفور فحاولت أن أثنيه عن الذهاب وإنقاذ عبادة لكنه لم يهتم لم أعلم كم مر من الوقت حتى توقف مسعود على جانب الطريق قائلا « إنها بداية الرحلة يا أدم تلك هي المرحلة الأخيرة أما أن تكون ندا لها أو تنسحب فما سوف تلاقيه لهو الجحيم بذاته ».

كنت منزعجا للغاية خاصة أننا تركنا عبادة وسط تلك النيران فنظرت لمسعود الذي لم يهتم وأكمل قيادة السيارة حتى وصلنا للحارة بمنطقة السيدة زينب فأوقف السيارة قائلا «أعلم أن عقلك لا يستوعب الكثير لكن كثرة الأسئلة ستؤدي لخسارتك وفقدان حياتك»، نظرت له في تعجب قائلا «لقد تركنا عبادة للموت بأيدينا و.......»، قاطعني مسعود في هدوء قائلا «كل ما يدور حولك لسبب فحاول كشفه بنفسك، أما الآن فبدايتنا من هنا دعنا نصعد الى المنزل

ثم نتحدث».

هبطنا من السيارة متجهين الى المنزل ما أن وصلنا وجدت النور مضاء فصعدنا لنفتح الباب لنجد أحمد جالسا على الأريكة يدخن السجائر ودخانها يعبئ المنزل، حين شاهدنا نهض من مكانه قائلا «كنت أنتظرك يا صديقي العزيز فمنذ حادثة الحريق وأنا أبحث عنك، أين كنت طوال تلك الفترة؟».

نظرت لمسعود بتعجب الذي بادر بالحديث قائلا «ألم تكن تريد قتله ظنا منك أنه السبب في موت والديك بالحريق؟».

نظر له أحمد بعد أن ألقى بسيجارته على الأرض قائلا « لايهم ذلك الآن فمهما كان سوف يظل أدم أخي وصديقي فما حدث ليس له ذنب فيه لذلك دعونا نفتح صفحة جديدة فهناك الكثير من الأمور حدثت لابد أن تعرفها».

تقدمت ببعض الخطوات بعد أن أغلقنا الباب خلفنا قائلا «هات ما عندك يا أحمد فليس لدينا الوقت الكافي للعب».

نهض أحمد مقبلا على لكن مسعود سد طريقه فقال «يا أدم حين رحلت حدثت بعض الأمور الغريبة، بعد الحريق الذي حدث كنت أري والداي في المنام على مدار شهرا كاملا في حلم غريب كانا جالسين في مكان قاحل عند بيت من خوص

والطين يلبسون زيا غريبا كأنهم في مراسم شيء ما وحولهم أناس متشحون بالسواد يبكون ووالداي يتقدمان ناحية باب كبير ثم يختفيا و.........».

نظرت بهلع لمسعود ثم لأحمد قائلا «بالتقريب ذلك نفس الكابوس الذي أشاهده يوميا في منامي و....».

قاطعني مسعود بحدة قائلا لأحمد «أكمل ما عندك».

نظر له أحمد بضيق قائلا « هناك أناس غرباء كانوا يسألون عن أدم لمدة شهر كامل ثم اختفوا، أيضا فتاة تدعي أنها من أقارب أدم تسأل عنه باستمرار أما الغريب فهو ذلك الضابط حسام الذي يأتي كل يومان ليسأل عنك كأنه عين في وظيفته للسؤال عنك».

نظر مسعود لي ثم لأحمد موجها حديثه له قائلا «أتستطيع وصف هؤلاء الغرباء لي؟ هذا كل ما يعنيني في الأمر».

أشعل أحمد سيجارة أخرى قائلا «في أول مرة جاءت سيارة جيب قديمة الشكل رمادية اللون بها ثلاثة رجال وامرأة من زيهم ولهجتهم على ما أظن أنهم من أهل الصعيد بعدها على مدار شهر كامل ظلت الزيارات متكررة لكن بدون تلك المرأة».

نظر لنا مسعود قائلا «لقد بدأت الرحلة يا أدم، تلك هي

العلامة الأولي فلا أظن غيرهم من جاءوا ليسألوا عنك».

تقدمت حينها ناحية المنضدة واضعا الحقيبة عليها قائلا «المشكلة ليست بهم، بل في ذلك الضابط الذي يلاحقني وهناك من تدعي أنها من أقاربي».

جلس مسعود على أحد الكراسي قائلا «لذلك قلت لك أنها بداية الرحلة دعني أشرح لك ما سوف نقوم به فالقادم في حكايتنا هو الأصعب».



الفصل السابع عشر

العودة للماضي

- منذ أكثر من خمسون عاما في قرية الخير النائية بالصعيد.

لجئت دليلة للاحتماء بقرية الخير التي كان يحكمها ذلك الطاغية المعروف موسى الذي لم يكن يسمح للغرباء بالدخول للقرية فلما شاهدها وطفلها سمح لهم بالمكوث بداخل القرية بل وضع قانونا لها بأن لا تخرج من القرية طوال عمرها، قبلت دليلة بذلك القانون مرغمة فخصص لها بيت قريب من منزل حاكم القرية، كانت الحياة هادئة حتى جاء زائرا خفيا لدليلة بعدها تبدلت الأحوال تماما.

عرفت دليلة في القرية بأنها عرافة الغجر فأصبحت القرية بأكملها تهابها وتستشيرها في كافة أمورها الداخلية حتى وصلت لمسامع موسى فطلب مقابلتها، حينها أخبرته دليلة بكل ما في جعبتها فخصها بحمايته هي وأبنها الذي بدأ يشب بين شباب القرية وأصبح الصديق المفضل لمحمود الابن الأكبر لحاكم القرية وعملا سويا في الزراعة.

دليلة لم تكن عرافة فقط بل ساحرة ماهرة جدا استعان بها موسى في كافة الأمور فكان يذهب إليها ليلا ليحظى بكل ما

هو جديد حتى تنبأت له بما يريده مدينة أثرية صغيرة مبني عليها القرية التي يعيشون بها لحاكم فرعوني شديد الصرامة تحت حراسة الشيخ السماوي، لم تكن تعرف أن موسى قد عقد الصفقة معه منذ زمن حتى علمت بالأمر فجعلها موسى الوسيط بينها وبين السماوي وقبيلته.

في نفس الوقت كان مسعود أبنها يعيش حياة رغدة مع أبناء موسى خاصة محمود الذي كان يشاركه في أحلامه الخاصة بالحرية حينها كانت شفاعة تتردد على البيت فأصبحت مقربة من أمه دليلة أكثر من والدها موسى، تلك الفتاة الصغيرة صاحبت الخمسة عشر ربيعا كانت شديدة الجمال جاذبيتها لا تقاوم لكنها كالفاكهة المحرمة لم يجرؤ أحد على النظر إليها أو الاقتراب منها، عندما كانت تأتي لمنزل دليلة كان مسعود يراقبها من خلف الباب ففتنة الحب أشد قسوة من أي فتن أخرى.

بدأ مسعود في التقرب لشفاعة التي لم تتفوه بأي كلمة على الرغم من شخصيتها وطبيعتها القاسية حين وقعا في براثن الحب، عاشا الحب المحرم في الخفاء بعيدا عن الأعين فكانت شفاعة تأتي من الصباح الباكر تلازم دليلة وفي الليل معه، في نفس الوقت زادت سطوة دليلة وقوتها أصبحت لا تضاهي فكانت فالمرتبة الثانية بعد موسى مما أغضب

الكثيرين لكنهم كانوا يخشون الحديث مع موسى لبطشه الشديد في التعامل.

كان حبل الود موصول بين دليلة وشفاعة لدرجة أربكت من حولهم فكانت تعلمها كل ما أوتيت من علم في مجال السحر في نفس التوقيت وضع موسى ثقته في عرافة الغجر بشكل مبالغ فيه فكشفت له عن مؤامرة كادت أن تودي بحياته، فحين قبض على هؤلاء المتآمرين أشارت عليه بأن يقدمهم قربانا في الوادي القاحل حينها قام موسى بقتل معارضيه في الأرض القاحلة تقربا للشيخ السماوي وقبيلته.

كان هناك ضيفا خفيا يأتي كل فترة لدليلة لم يعرف بأمره أحد قط لكن في أحدي الليالي رجع مسعود للبيت مبكرا فشاهد ذلك الضيف الملثم المتشح بالسواد طويل القامة فاختبأ في أحد الأركان المظلمة يشاهد حديث ذلك الغريب مع والدته الذي أستمر قرابة ساعتين أخرج من حقيبة يد بدائية الشكل والصنع ثلاثة صناديق صغيرة فالتقطتهم دليلة ثم ضحكت فقام ذلك الشخص من مكانه ليخرج من المنزل مختفيا في غضون دقائق، دخل مسعود على أمه فوجدها تنظر لتلك الصناديق قائلة «يبدو أن الحظ ابتسم أخيرا لنا يا بني فاليوم سوف نتمكن من تلك القرية بما فيه وكل ثرواتها ستؤول لنا».

نظر لها مسعود في تعجب قائلا «عن أي حظ تتحدثين يا أمي ومن ذلك الشخص الغريب الذي يأتي لكي كل فترة من الوقت؟».

نهضت من مكانها غير مهتمة بكلام مسعود قائلة «إن أخبرتك من هو هل ستعرفه؟ أم الفضول يقتلك فقط».

التقطت صندوق من الصناديق فمدت يدها لمسعود قائلة «خذ هذا الصندوق ادفنه في ذلك الحقل الذي تعمل به أنت ومحمود ابن موسى، لا تدع أحد يراك ثم تعال سريعا».

أخذ مسعود الصندوق منها قائلا «سأفعل ما تأمريني به لكن هل تعددت علاقاتك لتصل أيضا للغرباء؟».

غضبت دليلة من كلام أبنها قائلة «لست غانية أيها الأحمق في القريب ستعلم حقيقة الأمر، بالمناسبة أرجوا منك عندما تأتي بشفاعة ألا يكتشف أمرك أحد فالرائحة فلو فاحت الرائحة لن ترى إلا الهلاك».

صدم مسعود من حديث والدته فأخذ الصندوق متجها لذلك الحقل التي يعملوا بها فدفن الصندوق عائدا للمنزل، فوجد شفاعة تقف خلف المنزل تراقب دليلة من خلف النافذة الخشبية الصغيرة فأقترب منها ممسكا يدها فنظرت له ببرود قائلة «كنت أنتظرك»، فجذبها من يدها ناحية أحد

الحقول الزراعية مستفسرا عن سر وقوفها في ذلك الوقت فهمت أن تقبله فابتعد عنها قائلا «أخبريني أولا لماذا كنت تتلصصين على والدتي في تلك الساعة المتأخرة»، حينها أدارت لي ظهرها قائلة «أن مصالحنا واحدة ومشتركة يا مسعود فلا تجعل عقلك يقف عند نقطة معينة»، طلب منها المغادرة فأدار لها ظهره فقالت «أعلم أن والدتك تعلم العلاقة بيننا لكنها لن تستطيع الحديث مع أي شخص مهما كان في ذلك الأمر فهذا يعني نهايتها» ثم غادرت متجهة الى منزلها.

عاد مسرعا للمنزل فوجد والدته تبتسم قائلة «غريبة تلك الفتاة شفاعة فهي كأبيها صخرة متحركة خالية من أية مشاعر فكيف لها أن تقع في غرامك».

نظر لها في حيرة من أمره قائلا «لقد قمت بتنفيذ طلبك كما أمرتي سأخلد للنوم الآن».

مازالت تلك العلاقة بين شفاعة ومسعود مستمرة لكن تحت نظر دليلة حتى جاء ذلك الزائر مرة أخرى فسمع كلمة الوسيط فلما خرج من عندها، دخل مسعود لها متسائلا عن تلك الكلمة حينها أخبرته أنها وكلت الوساطة لذلك الشخص في حالة موتها فالطالع الخاص بها ينبئها بموتها قريبا، أخرجت دليلة الصندوقين المتبقيين فأعطتهم لمسعود قائلة «لا تفتح اي من الصندوقين إلا في حالة موتي فمن وجدت

فيه بعض من قطرات دمي فهو لك أم الثاني قم بدفنه خلف منزل موسى ثم أركض بعيدا عن تلك القرية فلا تعود إلا وأنت متمكن من كل شيء».

***

كان مسعود على علاقة صداقة وطيدة جدا بمحمود أبن مرسي الذي كان يختلف كثيرا عن عائلته فكان متمردا على العادات والتقاليد التي قد سن قوانينها والده فكان ما يتمناه هو موت والده وخروجه من تلك القرية للأبد، حين عثر على الصندوق الصغير المدفون في الحقل وأقام الصفقة مع حارسها أنزعج مسعود جدا منه وأبتعد عنه رغم صداقتهم الوطيدة.

حين شاهد مسعود مقتل والدته في الوادي القاحل على يد شفاعة وأبيها هرب من المكان بعد أن دفن أحد الصندوقين في خلف منزل موسى ثم غادر بلا رجعة قاصدا الوسيط الذي أخبرته والدته عنه في رسالة بداخل ذلك الصندوق.

***

الفصل الثامن عشر

قانون الشر

- الرابعة عصرا في قرية نائية بالصعيد « الخير سابقا».

جلست شفاعة على مقعد خشبي كبير الحجم في منتصف بهو منزلها بالقرية حولها أشقائها ومساعديها تنظر لهم بعين باردة ممسكة بذلك السوط المملوك لوالدها، دخل أحد الرجال لبهو المنزل بيده ورقة مطوية أعطاها لشفاعة قائلا «لقد ظهر صاحب العهد الجديد بالقاهرة في منزله بحي السيدة زينب معه رجل كبير السن وشاب أخر »، نظرت له شفاعة ثم أشارت لأحد أتباعها أن يقتادوا ذلك الرجل للخارج لتنهض قائلة « مرحبا بصاحب العهد الجديد فبوجوده ستتحقق النبوءة».

لم يجرأ أحد على الحديث معها لكن شقيقها إبراهيم كان يملك بعض من الجرأة فقال لها «طوال تلك المدة عشنا معك يا شفاعة لم نسمع منك غير قصة النبوءة المزعومة كل ما أريده الآن هو نصيبي من الميراث لأرحل من هنا وأستمتع بما تبقي لي من عمر».

نهضت شفاعة مشيرة لأتباعها بالخروج لتنظر لأشقائها قائلة « لم أمكث في ذلك المكان طوال عمري هباء ما في

باطن الأرض هو حق لي، فقد لازمت والدكم منذ أن كنت صغيرة لا أعي في الدنيا شيء تعلمت ما تعلمته لأصل لما أنا فيه، الآن تريد الرحيل يا إبراهيم لا يهم أي منكم فكلكم بلا فائدة أنا من أخطط لكل شيء أما أنتم فلا قيمة لكم».

حاول إسماعيل أن يتكلم لكنها قاطعته بحدة شديدة جعلتهم يصمتون تماما فقالت «نحن سبعة أشقاء هرب واحدا ليختار طريقه فلقي مصيرا بائسا فقد نفسه وعائلته ما عدا أبنه صاحب العهد الجديد، أما هدي فهي طوال حياتها صامتة لا فائدة منها ولا ضرر ، إبراهيم الحاسد الناقم على معيشته في نفس الوقت سلبي وساذج صاحب شخصية هشة، إسماعيل ذلك الشهواني المزعج صاحب الكأس الذي يميل رأيه للسيدات والفتيات فقط، محمد ذلك المادي الحكيم صاحب العقل الشيطاني أشبه بعقلي أنا لكن الفرق بيننا أنه أختار الخضوع، أما عوض ذلك الأبله الذي لا يحسن التصرف في أي شيء، عن أي ميراث تتحدثون فلتشكروني أني أبقيت على حياتكم خاصة بعد أن علمت أن ثلاثة منكم باعوا لفافاتهم لمحمود فأصبح المتبقي لي ثلاثة فقط، هل يريد أحد الحديث الآن في أي شيء أم نستعد لما هو قادم؟».

نكس الجميع رأسه ما عدا هدي التي نهضت صاعدة الى

غرفتها بالطابق العلوي فنظروا لها جميعا حينها ضربت شفاعة بالسوط في الأرض قائلة «دعوكم منها فالليلة ستكون هامة لنا جميعا، فالوسيط قادم ومعه ثلاثة زائرون لهذا سوف أنشر أتباعي ليعلنوا لأهل القرية بأن ميعاد الحظر سيكون من السادسة مساءا فلا أريد مخلوق في الطرقات نهائيا».

مرت ساعتان بعد أن أعلنت شفاعة حظر التجوال المكان القرية بأكملها في بيوتها لا يستطيع أحد الخروج فأصبحت كمقبرة كبيرة، تجولت شفاعة ومن حولها أخوتها وأتباعها في شوارع القرية فكانت مظلمة خاليه فساروا الى أن وصلوا للوادي القاحل خلف منزلها قائلة «هنا باب الحياة التي طالما تمنيت الوصول إليها عشت عمري كله في انتظار لحظة ظهور البوابة وأخذ ما في باطن الأرض من كنوز» ، أشارت لأتباعها فانصرفوا جميعا وتتبعهم أشقائها حينها جلست على الأرض تنظر للسماء قائلة «أعلم أنها نبوءة ملعونة لكني لن أضيع عمري هباء فكل ذلك ملكي فلا ذنب أنى كنت الأقوى دائما فجميع أشقائي قليلي الحيلة ضعاف الشخصية لكن.........».

اشتعلت فجأة دائرة من النار حول شفاعة التي نظرت حولها لتسمع أصوات صراخ بسيطة فيظهر أمامها شخصا

طويل القامة ملثما متشحا بالسواد خلفه ثلاثة أشخاص ملثمين يقفون خلف تلك الدائرة النارية، يدخل ذلك الشخص في قلب الدائرة بعد أن نهضت شفاعة قائلة «كما تعودت منك أيها الوسيط دخولك الدرامي مهيب بعض الشيء لكنه لا يخيفني».

ضحك الوسيط قائلا «من قال إني أتيت لأخيفك فالخوف للجبناء والضعفاء أما أنت يا شفاعة كما عاهدتك قوية قاسية كصخرة صماء أعلي جبل».

وقفت شفاعة على وجهها ابتسامة جامدة قائلة «هات ما عندك أيها الوسيط فأنا أنتظر على أحر من الجمر ذلك الخبر السار الذي ستزفه لي».

نظر الوسيط قائلا «لقد أقترب الميعاد فصاحب العهد الجديد يعد عدته للقدوم لكي فكوني على استعدادا وحذر فهو ليس بمفرده، أما هؤلاء الثلاثة فهم هدية لك لا تقربي منهم حتى يحين الوقت فالظهور بات قريبا».

تقدمت شفاعة بخطوات ثابتة حتى تحولت النار لكتلة لهب زرقاء شديدة فسمعت صوت يقول لها « حفنة بالية من البشر يتقاتلون على ميراث ملعون منذ عهود فلكم ما تشتهون فيها فأتبعوا قوانينها لتحصلوا على مرادكم فكلما زاد الدم أصبح الطريق أسهل مما تتخيلوا، لصاحب العهد

الجديد وجهة واحدة فأن حددها لا يعترض أحدا طريقه فقد أختار بملء أرادته، أما من حوله فأن أستطعم الحصول على ما تريدون فلا تمكثوا فيها الكثير وأهربوا لأبعد نقطة في الشمس لعلها تكون المنجية لكم «.

سكت الصوت فهدأت النيران فتقدم الوسيط ببعض الخطوات ناحية شفاعة قائلا «خذي هداياك لتخفيها في بطن الجبل فلا يطلع عليها أحدا سواكي حتى يحين موعدنا».

نظرت شفاعة قائلة «ماذا عن صاحب العهد الجديد؟».

ضحك الوسيط قائلا لها في سخرية واضحة على كلماته «أعلم أنك لم تخشي أي مخلوق ما عدا صاحب العهد الجديد فبينك وبينه معركة كبيرة تعلمين جيدا من سيفوز فيها لكنك تريدين تغيير القدر لصالحك، أعلمي جيدا أنه ليس وحده فهناك مفاجأة قادمة معه قد تجعلك تغيرين حساباتك لذلك أبدئي في وضع الأمور في نصابها الصحيح».

نظرت له شفاعة بجمود كعادتها قائلة «لا يهم من معه فكل ما سيئول في تلك المقبرة لهو ملك لي حتى أن اضطررت لقتله ومن معه».

ضحك الوسيط بجنون قائلا «إن قمتي بقتله فسيضيع

عمرك هباء يا شفاعة، فكري جيدا وأحكمي بعقلك فلا يغرنك قوتك وسطوتك فما أنت مقدمة عليه لهو لعبة عقلية لن يفوز بها سوى الحكيم القوي الذي يستخدم عقله قبل يده فهذا الشخص ليس من أبناء جلدتك من القرية ستحكمينه كما كان يحكم أبوك بالسوط والقسوة».

تقدمت شفاعة نحو الثلاثة أشخاص لتتحقق من ملامحهم فما أن اقتربت فوجدت ثلاثتهم ملثمين منهم طويل القامة ومنهم المتوسط والقصير فتعجبت حينها فنظر لها الوسيط قائلا «لا تتعجلي في الكشف عن هويتهم فأنا أعلم أن ذكائك لن يخونك فأحسني التصرف»، أدار لها ظهره ثم سار باتجاه الصحراء فلم تنتظر شفاعة أن يختفي عن أعينها وقادت هؤلاء الملثمين المتشحين بالسواد ناحية ذلك الكهف الجبلي في غرفة خشبية ضخمة مليئة بالأثاث القديم ثم استدعت بعض من أعوانها تأمرهم بحراستهم مهما كلفهم الأمر.

كان الوقت متأخرا من الليل حين دخلت سريعا الى بهو منزلها أمرة أحد أتباعها باستدعاء جميع أشقائها في الحال، تجمع الأشقاء في بهو المنزل فنظرت لهم شفاعة قائلة « باكرا سوف نبدأ عملية تهجير الأهالي من القرية فالوقت قد أزف وحان »، صدم الجميع من ذلك القرار المفاجئ لكنهم لم يستطيعوا النطق بأية كلمة فأكملت شفاعة حديثها قائلة

«ضيفنا على وصول فأحسنوا استقباله».

***

الفصل التاسع عشر

بداية الحقيقة

- الساعة الثامنة مساءا، منزل أدم بحارة في منطقة السيدة زينب.

كان الصمت يخيم على المكان فكنت أنظر لأحمد ومسعود لأجدهما صامتين فقطع ذلك الصمت حين رن جرس الباب فنهض أحمد مسرعا تجاه الباب خلفه مسعود الذي وقف متأهبا، فتح حينها أحمد الباب فوجد فتاة في العقد الثاني من عمرها جميلة الشكل بيضاء البشرة شعرها مائل للاصفرار ناعم كالحرير عينها زرقاء كموج البحر دلفت للداخل بدون استئذان تنظر لي قائلة بصوت منخفض «بالتأكيد أنت أدم».

نهضت من مكاني أتقدم بخطوات بطيئة ناظرا للجميع فضحك أحمد قائلا «تلك هي فريدة إسماعيل ابنة عمك يا أدم»، صعقت من كلمات أحمد فعلي حد علمي أن عمي إسماعيل لم ينجب سوى صبيان فمن تكون هي؟، دعاها أحمد للجلوس بعد أن أغلق الباب فتقدم بخطوات ثابتة ناحية أحد المقاعد فجلست ناظرة لي قائلة «تلك هي المرة الأولي التي نتقابل بها فعلي ما أظن أنك لم تقابل أحد من أبناء عمومك سوي أشقائي من زوجة أبي الأولي».

جلسنا جميعا حولها فبدأ مسعود الكلام قائل بحزم «ماذا تريدين، بلغنا أنك تسألين عن أدم فما الأمر؟».

ابتسمت فريدة قائلة «جئت من أجل حقي في الميراث الموجود بقرية الخير مسقط رأس والدي، فلم أراه منذ خمسة أعوام فحاولت البحث عنه حتى قرأت نعيا بالجريدة للسيد محمود موسى فاستفسرت عن العنوان حتى وصلت الى هنا و.......».

قاطعت كلامها بتعجب واضح على نبرات صوتي موجها حديثي لها قائلا «لكننا لم ننشر نعيا لوالدي بأية جريدة».

فتحت حقيبتها فأخرجت ورقة لأحد الجرائد بها نعى والدي بتاريخ الوفاة فالتقطها مسعود متفحصا تلك الورقة ثم أعطاها لي، طويت الورقة بعد قرأتها مستفسرا عن سر قدومها فوجدتها تقول «جئت لكي أنضم لك في رحلتك للبحث عن الميراث ووالدي فلقد توفيت أمي ولم يبقي لي غيره».

نهض مسعود من مكانه منزعجا قائلا «من أخبرك أننا بصدد رحلة البحث عن الميراث المزعوم بجانب كيف لنا أن نثق بك؟».

ابتسمت مرة أخري قائلة «لقد أخبرني أحمد منذ أن بدأت

البحث عن أدم وتذكرت كلام والدي مع والدتي حين كان يخبرها بقصة ذلك الميراث لذلك فهدفنا واحد فلما لا نصبح فريقا خاصة أننا سنواجه شفاعة».

نظر مسعود لها غير مصدقا كلامها فنهضت من مكاني قائلا «مرحبا بك يا فريدة معنا سوف نسافر فجر اليوم متجهين الى القرية».

صعق مسعود من الكلام في الوقت نفسه أبتسم أحمد ابتسامة المنتصر قائلا «الآن لتبدأ اللعبة»، أمسكني مسعود بقوة من معصمي طالبا الحديث على انفراد فدلفنا لأحد الغرف فدفعني دفعة خفيفة قائلا «كيف لك أن تثق بتلك الفتاة وأن ترحب بها أيها المعتوه، أليس من الممكن أن تكون مكيدة من شفاعة لأجل إيقاعك والاستيلاء على اللفافات».

لأول مرة أشعر بثقة في نفسي فنظرت له مبتسما قائلا «سوف يتبين لنا أمرها لاحقا أما الآن أريد أن أخبرك بأني قررت أن أنضم لشفاعة حتى نأخذ حقنا ثم نعود أدراجنا لنباشر حياتنا الطبيعية».

لأول مرة أرى مسعود مبتسما ابتسامة خفيفة تكاد تظهر على قسمات وجهه قائلا «قرار صائب وطائش بعض الشيء لهذا لن أتناقش معك في ذلك الأمر، لكن على أن أحذرك من تلك الأفعى السامة شفاعة فلا تظن بانضمامك لها ستحصل

على مرادك فهي منافستك الوحيدة للحصول على الميراث».

جلست على أحد المقاعد بالغرفة قائلا لمسعود الذي ظل واقفا أمامي «لقد سمعت بما فيه الكفاية عن شفاعة كل ما يهم الآن هو الوصول لتلك المقبرة أو المدينة المزعومة لأخذ ذلك الميراث الذي سفك من أجله الدماء لسنوات عديدة».

ادار مسعود ظهره لي متأملا نافذة الغرفة المغلقة قائلا «عند التعامل معها كن على حذر لا تعطي الأمان أو الثقة لها، منذ أن عاهدتها كانت شفاعة كالأفعى ناعمة الملمس قوية الضربات تنثر سمومها بلا شفقه أو رحمة قاسية بلا قلب، فمنذ أن عاهدتها الى وقتنا هذا كانت قوتها تزداد فهي لم تكن حاكمة القرية فقط بل ساحرة وعرافة قوية يهابها الجميع الصغار قبل الكبار، لا أنسي أنها كانت سبب في قتل أمي دليلة على يدها هي ووالدها موسى بل هي من قامت بذبحها لذلك هربت من القرية متوعدا بالقدوم مرة أخرى».

نظرت له في دهشة قائلا « مقتل والدتك على يد شفاعة! كيف هذا؟».

نظر لي مسعود ليبدأ سرد قصة جدي والقرية الى قدومه هو وأمه دليلة العرافة لتصبح المستشارة الخاصة للحاكم ثم تطور علاقته بشفاعة وذبحها لوالدته أمام نصب أعينه ثم هروبه من القرية ليصبح خادم للشيخ عبادة الوسيط

بين شفاعة وقبيلة الشيخ السماوي حارس المدينة المدفونة تحت قرية الخير خاصة بعد أن خرقت شفاعة بعض من المعاهدات بينها وبينه، على الرغم من سماعي لقصة قريتنا بأكثر من طريقة لكني شعرت بغصة ألم في مسعود وهو يقص على حكايته مع شفاعة، ساد الصمت للحظات حتى سمعنا طرقا على الباب فهممت أن أخرج فأشار لي مسعود بالهدوء حينها سمعت الباب يفتح وصوت أحمد يقول «أخبرتك حين يظهر أدم سوف أبلغك، لماذا عليك القدوم كل يوم للسؤال عنه؟».

نظر لي مسعود قائلا «يبدو أن هذا الشرطي يتعقبك يا أدم لذلك يجب علينا الرحيل قبل الفجر، لنستعد».

ما هي إلا دقائق معدودة فوجدت أحمد يدخل علينا الغرفة قائلا «يبدوا أننا مراقبون لذلك يجب أن نتحرك فورا» نظرت من خلفه فوجدت فريدة تقف حاملة الحقيبة التي أعطاها لي الشيخ عبادة فالتقطتها بسرعة غريبة فأنتفض جسدها من المفاجأة نظر الجميع فلم أعرهم اهتمام قائلا لهم « كيف السبيل للخروج من الحارة خاصة أن السيارة موجودة في الشارع الرئيسي ».

نظر أحمد قائلا بحماسة بالغة «أعرف الطريق جيدا فاتبعوني».

كانت نظرة مسعود لي تحمل ألف معني شعرت بها حين دلفنا خارج الحارة قاصدين السيارة لنذهب لوجهتنا فزرع في قلبي الشك تجاه تلك الفتاة خاصة بعد أن التقطت الحقيبة فهل تعرف محتوياتها أم كما يحدثني قلبي بأنها دسيسة من شفاعة لتعرف تحركاتنا؟، دلف أحمد وفريدة لداخل السيارة حين هممت بالركوب أوقفني مسعود قائلا «هل ساورك الشك أنت أيضا؟»، فأشرت برأسي له بنعم حينها أخبرني أنه يجب علينا أن نأخذ حذرنا حتى يتبين لنا حقيقة الأمر، انطلق مسعود بعد أن ركبنا جميعا متجهين الى وجهتنا «قرية الخير».

***

في نفس التوقيت بقرية الخير كان أتباع شفاعة يقفون على مداخل القرية استعدادا لتهجير الباقي من أهلها، خرجت شفاعة من منزلها قائلة «لقد أقترب الضيف بالقدوم فأحسنوا استقباله فالوعد حق» ثم بدأت بضرب السوط على الأرض عدة مرات قائلة «ما هي إلا أيام معدودة ليظهر ذلك الباب وأحصل على مرادي منه حينها سوف تكون مفاتيح الدنيا بيدي والخلود هو اسمي».

خرج إسماعيل خلفها قائلا «أحقا سوف تهجرين ما بقي من أهل القرية استعدادا لتحقيق تلك النبوءة الشيطانية، أجننت

يا شفاعة؟!».

نظرت له شفاعة بسخرية قائلة «الصمت هو حلك أيها البدين فليس لك الحق في أن تتكلم أنت أو باقي أشقائك فما أفعله وسأفعله يؤول لي أنا، أنا من أفنيت عمري من أجل ذلك الميراث فأن فكرت أن تقف في طريقي فستلحق بأخيك محمود لكن تلك المرة سوف أعلق رأسك على باب القرية يكفي ما فعلته أنت وأخوتك لتظنوا أني سوف أقع تحت رحمتكم، كان من الممكن أن أقتلكم لكني فضلت الإبقاء على حياتكم لتندموا على ما اقترفته أيديكم ناحيتي، لتصمت أيها الأحمق ولتشاهدني أنا صانعة المجد والخلود».

نظرت شفاعة للوادي القاحل قائلة «إن الغد لقريب لأقدم لك الكثير من القرابين ليظهر نور السماوي ويفتح الباب المغلق لأحصل على ميراثي عندها تنتهي معاهدتنا مع الشيخ السماوي ويصبح كل شيء ملك لي».

***

الفصل العشرون

لتفتح أبواب جهنم

- الساعة الثانية والنصف فجرا، مكتب النقيب حسام بمديرية الأمن.

دخل حسام مكتبه بعد أن أمر أحد الجنود الموجودين باستدعاء الضابط شريف لمكتبه فورا، طرق الباب عدة طرقات فأمر حسام الطارق بالدخول فدخل شريف يقدم له التحية العسكرية فأمره بالجلوس ثم نظر لساعة الحائط المعلقة قائلا « مر أكثر من خمسة أشهر على موت ذلك التاجر في حادث تصادم سيارته ونتج عنها تفحم الجثة بعدها بفترة قريبة حريق هائلا يلتهم القصر كله بما فيهم أبنته وزوجته والحارس، الغريب هنا هو عدم وجود جثتهم كل ما وجدناه كانت لحارس القصر أما الباقي فالجثث قد اختفت في بداية الأمر ظننت أن الجثث قد أصبحت رمادا حينها قابلت أدم ذلك اليوم، بعدها بفترة ظهر التقرير النهائي للمعمل الجنائي الذي نفي وجود جثث أخري غير الجثة التي عثرنا عليها الأغرب من ذلك أنه بعد استدعاء الابن لأخذ أقواله لم يبد عليه الحزن من فقدانه لعائلته ».

نظر له شريف قائلا «لا أري شيء مريبا فيما تقول خاصة

أن من فتح باب التحقيق في ذلك الأمر هو أنت، تلك الحوادث عادية تندرج تحت بند القضاء والقدر فلا أظن أن هناك أي شبهة جنائية».

نظر له حسام بعد أن أشعل سيجارته قائلا «بالعكس هناك شبهة جنائية واضحة فأن رتبنا الأحداث من البداية نجد أن الأب تاجر ثري معروف بتجارة الأخشاب بجانب أنه سليل لعائلة معروفة فوالده كان عمدة لقرية من قري الصعيد فبالتأكيد زاده ثراء، لم ينجب إلا أبنا واحدا وأخته بجانب الزوج إذن..........».

قاطعه شريف قائلا بحماسة « إذن حريق القصر مدبر بفعل فاعل وتراودك الشكوك ناحية الابن لكن لماذا؟».

ابتسم حسام وهو ينفث دخان سيجارته قائلا «نعم بالتأكيد خاصة أنه أختفي بعد التحقيق معه لمدة ثلاثة أشهر أو أكثر، لذلك وضعته تحت المراقبة بعد أن خرج من مكتبي الى وقتنا هذا».

نهض شريف من مكانه قائلا «كل ما قلته وارد لكن من أتى ذلك الشك بأنه الفاعل؟».

نظر حسام لشريف قائلا «حين قمت بمواساته يوم حادث حريق القصر بعدها في مكتبي بدا عليه عدم التأثر أو

الحزن خاصة أنه على يقين بأن والدته وشقيقته الصغيرة كانا بالمنزل وقت وقوع الحادث بعدها ذهب لبيتهم القديم بأحدي حارات السيدة زينب في أقل من يومين حدث حريق هائل في المنزل المقابل لهم بعدها علمت بأن أبن صاحب ذلك المنزل قد تشاجر مع أدم المشتبه به وقام بطرده، الأهم من ذلك حين أختفي طوال تلك المدة التي أخبرتك بها».

نظر له شريف متعجبا قائلا «وماذا بعد؟».

ابتسم حسام ابتسامة خفيفة قائلا «ومازال البحث جاري، لتذهب يا صديقي لتنال قسطا من الراحة وأنا أيضا».

خرج حسام من مبني وزارة الداخلية متجها الى سيارته ممسكا هاتفه متحدثا فيه لأحد الأشخاص قائلا «نعم، أعلم أنه ظهر بعد غياب طويل لهذا تركت في السيارة المنشودة جهاز تتبع دقيق، لا تقلقوا سوف ألحق بهم».

***

- في نفس التوقيت على أول طريق الصعيد الحر المؤدي لقرية الخير.

بعد أن خرجوا بالسيارة التي يقودها مسعود الذي بدا على وجهه الانزعاج من المدينة متجهين الى قرية الخير عن طريق الصعيد الحر نظر أدم لوجهه فسأله عن حاله فأخبره

بأنه بخير، مع أول الطريق قاد مسعود السيارة بسرعة جنونية جعلت فريدة تصرخ من الخوف كان أدم يحاول تنبيهه لكن بدون جدوى فتوقف فجأة طالبا من أدم النزول من السيارة والحديث معه قبل أن ينظر لأحمد وفريدة بحدة مبالغ بها جعلت القلق ينتابهم جميعا.

نظر مسعود لأدم بعد أن ابتعدا عن السيارة بمسافة كافية قائلا « أتظن بأن انضمامك لشفاعة هو عين العقل والحكمة أعلم أن قرارك طائشا لكني وجب على تحذيرك فأنا أشم رائحة الموت».

نظر له أدم متعجبا لحديثه قائلا «تلك المرة الثانية التي تخبرني بذلك الأمر، أعلم جيدا من هي شفاعة فقد سمعت ما يكفي عنها خاصة أنها شقيقة والدي».

انزعج مسعود أكثر قائلا بصوت حاد «ليس هذا كافيا فشفاعة قد قامت بصفقة وعهد مع الشيخ السماوي وقبيلته أي أنها تحظي بالحماية الكاملة بجانب أنها ساحرة قوية تجيد فنه جيدا وأنت لا خبرة لك في الحياة حتى تظن أنه بدلا من مواجهتها الانضمام لها لتحصل على ميراثك، شفاعة ستقتل كل من يقف في طريقها خاصة من بني جلدتها ودمها».

ضرب أدم بقدمه أحد الصخور الصغيرة قائلا «تأتي بعد

كل ما قطعناه لتخبرني بذلك؟، أتجد ذلك منطقيا بعد أن ساعدتني للوصول لما أنا فيه!».

امسك مسعود أحد الصخور ثم قذفها بعيدا قائلا «أنا مجرد خادم أنفذ الأوامر من سيدي الشيخ عبادة ليس أكثر بجانب أني عشت في تلك القرية منذ مولدي الى أن هربت منها في سن الثامنة عشر بعد مقتل والدتي على يد شفاعة ووالدها، لذلك على تحذيرك فالقادم ليس بهين بل هو الجحيم بذاته فبمجرد أن ندخل من بوابة تلك القرية ستفتح أبواب جهنم علينا جميعا، أخبرني أيضا ألا تجد أن اصطحاب أحمد وتلك الفتاة الغريبة فريدة أمر طبيعي فأنا أشعر بالقلق البالغ اتجاههم، أشعر بأن هناك خطأ أو خلل ما لا نفهمه لوقتنا هذا».

نظر أدم اتجاههم قائلا «أخبرتني والدتي ألا أثق بأحد مهما كان لذلك لا تقلق فأنا لا أثق حتى في نفسي التي بين جوانبي، لكن أخبرني ما سر تمسكهم بذلك الميراث على الرغم من أنه كأي مقبرة فرعونية تحتوي على كنوزا من ذهب وتماثيل أثرية؟».

نظر مسعود لأدم بغضب قائلا « ألم أخبرك بأنك شاب أحمق طائش لا تجيد شيء لكني لا أعيب عليك فقدرك هو من ساقك، لكن دعني أخبرك أني سمعت والدتي تتحدث

مع جدك عن تلك المدينة الصغيرة القابعة أسفل القرية التي تحتوي على ميراث الدم والخلود، أرجوا ألا تسألني أكثر من ذلك فليس لدي أكثر من ذلك انا هنا فقط لخدمتك وحمايتك».

بدا على أدم الحيرة بعض الشيء قائلا «لماذا أخبرني الشيخ عبادة أنه وسيط الشر على الرغم من حسن معاملته معي بجانب أنه علمني الكثير وساعدني؟».

ابتسم مسعود بعد أن أدار ظهره قائلا «لكل مقام مقال يا أدم لا تتعجل فالحقيقة الخفية بقي عليها بعض الخطوات لتكشف أوراقها لنا، أما الآن دعنا نذهب لعلنا نجد مكان للراحة لنكمل مشوارنا فالطريق مازال طويلا».

***

الفصل الواحد والعشرون

للقوة أحكام

- الساعة السابعة صباح اليوم التالي، قرية الخير.

وقفت شفاعة تشاهد القرية من شرفة المنزل بعد أن أمرت أعوانها بتهجير سكانها العجيب في الأمر أن أغلبهم رحل عن داره بدون أن يأخذ أي من أغراضه والبعض الاخر يلملم جميع حاجاته نازحا عن تلك القرية، كان إسماعيل يقف خلف شفاعة في الشرفة يراقب الموقف الذي أصبح جنونيا بسبب معتقداتها التي طالما لم يؤمن بها، تقدم بخطوات ثابتة بجانبها قائلا «أتظنين أن ما تفعلينه هو الصواب؟، إذن من أين لك بالقرابين بعد ذلك؟، خمسة عشر عائلة يرحلون بدون وجه حق... ألا تخافين أن يقدم أحدهم على إبلاغ الشرطة لنصبح وقتها في خبر كان؟».

نظرت له شفاعة قائلة ببرود شديد «كل ما أفعله هو عين العقل والصواب فالقربان توقف منذ أن أبلغني الوسيط بظهور صاحب العهد الجديد فتوقف الوادي القاحل عن شرب المزيد من الدماء، أما أهل القرية فليس لهم صوت أو قيمة ولا يوجد لديهم الشجاعة أو الجرأة الكافية من أجل أن يأخذوا تلك الخطوة، من عاش على العبودية مات عليها

هذا هو القانون السائد لمثل هؤلاء البشر، أما نحن فقد اخترنا الحياة بكل ملذاتها وشهواتها المتعددة لهذا كان ذلك الميراث حقا لي ولو كان من الشيطان نفسه».

نظر لها إسماعيل بتعجب قائلا «أعلم كل ما تريدي أن تقوليه فلقد حفظته عن ظهر قلب لكن ألا ترين أن سكان القرية المتبقيين ليس لهم حق في الحياة مثلك، أيضا أريد أن أعرف سر استعانتك بأتباعك من الرحالة على الرغم من وجود أهل المكان الأصليين أو تعتمدي على واحد منا فنحن أخوتك من دمك».

لأول مرة تضحك شفاعة بجنون قائلة «هل تظن نفسك صعيدي المنشأ والمولد؟، أفق يا شقيقي فنحن من صلب الرحالة والغجر فلا داعي لأن أذكر لك القصة من جديد، أما ما تقوله عن الحق في الحياة... فعن أي حياة تتحدث في ذلك الوقت ألا تعلم أننا نقترب على الميراث ذلك الذي أفنا أباك عمره فيه ومات على أمل أن يحصل عليه و...........».

قاطعها إسماعيل في حدة قائلا «ما الجديد في ذلك الميراث كغيره من المقابر نكتشفها لنحصل على كنوزها ثم يقفل بابها ليفتح بابا جديدا، كنوز الفراعنة واحدة لا تتغير لذلك أخبرتك بأني أريد حصتي منها ليتثنى لي الرحيل وبدء حياتي من جديد».

أدارت شفاعة ظهرها له تشاهد ما تبقي من السكان يرحلون من القرية قائلة «لا أعلم ما تحتويه تلك المقبرة لكني كنت على دراية كبيرة بوالدي فإصراره عليه يعني أنها تحتوي على شيء يفوق توقعاتنا، لكن ما كسر تلك التوقعات هو هروب محمود وخيانتكم لي لكن لا يهم فصاحب العهد قادم لي بنفسه فحياته هي الخلاص لنا والفوز العظيم».

***

في نفس التوقيت على بعد سبعين كيلو متر من القرية.

كان مسعود يقود بطريقة جنونية حتى توقف فجأة على جانب الطريق بجوار مقبرة كبيرة مكتوب عليها « مقابر الخير لعابري السبيل »، نظر أدم لمسعود الذي بادره القول بأنه يجب عليهم الهبوط من السيارة ليريهم شيء هاما حينها هبط الجميع من السيارة يسيرون خلفه بلا هوادة ينظرون لبعضهم البعض، توقف مسعود أمام باب معدني ضخم عليه الصدأ قائلا «من هنا تبدأ رحلتنا الحقيقية تلك التي سعينا خلفها طوال عمرنا، الستار ينزاح عن المسرح الكبير الذي سوف تكون أنت يا أدم بطلها الرئيسي يوازيك وجود شفاعة على تلك الخشبة، أما الباقي فهم أبطال فرعيين البعض منهم مؤثر والبعض الأخر لا قيمة له لذلك كونوا على استعداد».

نظر أدم للجميع ثم لمسعود قائلا «هل البداية من داخل

تلك المقبرة، كيف ذلك؟».

تقدم أحمد ببعض الخطوات ناحية البوابة ومن خلفه فريدة متفحصا المكان فوجد سبعة حفر موجودة بداخل المقبرة فنظر لمسعود الذي بدا على وجهه السعادة قائلا «أخبرني ما هي الاستفادة من ذلك المكان أليس من أولي أن نذهب للقرية لننهي ما قدمنا من أجله!».

نظر مسعود له ثم لأدم قائلا «هنا ستكشف حقيقة كل ما فينا لذلك دعونا أن نبدأ فليس أمامنا الكثير من الوقت».

فتح مسعود الباب الذي أصدر صريرا مزعجا فدلف للداخل ورائه الثلاثة أدم وأحمد وفريدة، حينها وقف في منتصف المقبرة قائلا «انظروا بداخل تلك الحفر السبع وأخبروني بما شاهدتموه»، حينها تقدم أدم ناحية واحدة من الحفر فوقف أمامها لدقائق بسيطة ثم التفت لهم قائلا « هياكل عظمية كثيرة كأنها تصرخ وتستغيث من هول شيء عظيم حدث لهم قبل موتهم »، ثم تقدم أحمد بخطوات ثابتة ناحية أحد الحفر ناظرا لها بتفحص شديد قائلا «لا أري سوي الرمال لكنها سوداء تتحرك كموج البحر و.........»، صمت أحمد لدقيقتين فتقدم نحوه مسعود ناظرا للحفرة ثم لأحمد الذي بدا عليه الذهول فأدار ظهره له مبتسما وهو يقول «أكمل يا أحمد ما تشاهده».

ركضت فريدة تصرخ من الخوف متجهة الى السيارة فحاول أدم اللحاق بها فأوقفه مسعود قائلا «هنا كانت تدفن قرابين مقبرة الفرعون الصارم ومن بعدها تأتي شفاعة يحرسها أعوانها لتقيم طقوس السحر عليها للتقرب من الشيخ السماوي وقبيلته لعلهم يكشفون سر المدفون تحت القرية أهي مدينة أم مقبرة حسب الشائعات التي طالت القرية بعد فترة حكم موسى جد أدم للمكان وتحويله لزنزانة كبيرة لأهلها، أما بالنسبة لتلك الحفر الموجودة فكل ما شاهدتموه لهو إجابة لما سوف تلاقونه».

نظر أحمد بحدة لمسعود قائلا «تتحدث بالألغاز والأمر أبسط من ذلك».

شرد أدم بعينيه اتجاه تلك الحفرة التي وقف أمامها قائلا بصوت منخفض «لم يكن الأمر بسيطا قط فالرحلة قد بدأت خطورتها منذ أن وطأت قدمانا هنا».

نظر مسعود لأحمد الذي أدار ظهره لهم متجها الى السيارة قائلا «سوف تظهر الحقائق قريبا يا أدم لتستعد سنتحرك الآن باتجاه القرية فكن مستعدا فللقوة أحكام».

الفصل الثاني والعشرون

عودة الضال

- الساعة التاسعة صباحا في قرية الخير.

علي مشارف القرية وصلت سيارة نقل كبيرة محملة بأسياخ من حديد أوقفها أحد أتباع شفاعة سائلا قائدها عن وجهته فأخبره بأنه قادم بناء على طلب حاكمة القرية حينها سمح له بالدخول في نفس التوقيت كان المتبقي من أهالي القرية يخرجون في سيارات نقل بطريقة منظمة خارج القرية، نظر السائق للحارس يسأله عن سر خروج هؤلاء الناس في سيارات النقل فلم يجبه على سؤاله سائرا أمامه الى أن وصلوا لمنزل شفاعة التي ما إن شاهدت السيارة أشارت لواحد من أتباعها بالتخلص من السائق فورا بعد أن وقفت أمام منزلها، هبطت شفاعة خلفها إسماعيل وبعض من أتباعها قائلة «تفصلنا ساعات قليلة على اللقاء الذي عشت عمري كله أنتظره».

نظر أحد أتباعها قائلا «لطالما عشنا في تلك القرية كأتباع لك ولعائلتك لما كنت ستصلين للمنشود فلا تنسينا».

التفتت له شفاعة قائلة بصوت حاد «هل وعدتك بشيء أيها الأحمق؟، لقد اشتريتكم بالمال والأرض فلا حق لكم في

المطالبة بأي شيء لكن لا تقلق فنصيبك محفوظ»، فنظرت لأحدهم الذي أستل سكينه فقام بذبحه حينها ضحكت شفاعة أمرة أن يزيحوا جثته هو والسائق بعدها أشارت للجميع بالذهاب ما عدا إسماعيل الذي وقف متسمرا من هول ما تفعله فنظرت له قائلة «لماذا الدهشة والتعجب يا شقيقي؟ أليس ذلك الأمر طبيعي في قريتنا، أتعلم لماذا أبقي على حياتك أنت والخائنين الآخرين على الرغم من فعلتكم الشنعاء وبيعكم لنصيبكم من الميراث لصالح محمود؟».

نظر لها إسماعيل بتعجب قائلا «لماذا يا بنت دمي؟».

نظرت له شفاعة مبتسمة على غير عادتها قائلة «لأنكم جزء من النبوءة بل أساسها لذلك أبقيت على حياتكم كي لا ينفرط العقد منى فلا أستطيع تجميعه من جديد، كلها ساعات ليظهر النجم الساطع في سماء قريتنا لتبدأ النبوءة في التحقق، بالمناسبة كي لا تسألني فالوقت قد أزف تلك السيارة المحملة بأسياخ الحديد سوف تدق على جميع مداخل ومخارج القرية استعدادا لقدوم صاحب العهد الجديد أدم، الم يكن أسمه أدم أم ماذا؟ لا يهم، الآن أصعد لغرفتك حتى أطلبك وأشقائك للقدوم فالضيف على وصول».

أدارت شفاعة ظهرها له لتتحرك بخطوات ثابتة حتى وقفت أمام تلك السيارة تصيح على أحد أتباعها وتأمره أن

يخرج الأسلاك الشائكة ليبدأ الجميع في العمل على بناء سياج حول مداخل ومخارج القرية ومراقبة الطريق من الخارج.

تحركت شفاعة بخطوات ثابتة نحو درج منزلها حتى وقفت على صوت قادم من خلفها يقول «سيدتي شفاعة لقد وصلتني رسالة من أحد أفرادنا المكلف بحراسة مقابر عابري سبيل قرية الخير وأفاد بوصول سيارة بها أربعة أشخاص ثلاثة رجال وفتاة ناحية المقابر ليدخلوا ناحية العيون السبع ثم يغادرون».

ابتسمت شفاعة له قائلة «لقد شارفوا على الوصول، أخبر رجالنا بأن يسرعوا في إتمام السياج فصاحب العهد قادم».

***

الساعة الثانية عشر ظهرا بالقرب من مدخل القرية الرئيسي.

بدأ مسعود يقلل من سرعة السيارة حتى توقف بالقرب من صخرة كبيرة متفحصا المكان من حوله بجانبه أدم الذي خرج من السيارة ينظر لمدخل القرية، خرج أحمد من السيارة مستفسرا عن سر توقفهم فأشار له مسعود بالصمت بعدها بدقائق قليلة نظر مسعود لأدم قائلا «من الواضح أن

شفاعة تستعد جيدا لاستقبالك فالسياج قد نصبت لصاحب العهد الجديد ومن الواضح أنها أخلت القرية من سكانها».

نظر أحمد لمسعود قائلا بدهشة «هل يحق لها أن تخلي القرية من ساكنها؟».

نظر له مسعود بحده ثم أدار وجهه عنه فأعاد أدم نفس السؤال على مسعود الذي لم يجب عليهم ليركب بعدها السيارة وهم من خلفه ليتحركوا، نظر أدم لأحمد الذي بدا الغضب عليه اتجاه مسعود قائلا «لا تقلق ما هي إلا دقائق معدودة يا صديقي ويكشف الستار خفايا ذلك المكان خاصة أننا منتظرون وطالما تلك الحقيبة بحوزتنا فنحن سادة الموقف، أليس كذلك يا مسعود».

ابتسم مسعود قائلا «منذ عدة دقائق كنت أريد أن أخبرك بأمر هام بيني وبينك لكن الآن أصبحت على يقين بأنك تخطوا خطواتك الصحيحة بسرعة فائقة».

نظر أدم مبتسما ابتسامة خفيفة لفريدة التي ظلت طوال الرحلة صامتة قائلا لها «لماذا لم أشاهدك تتحدثين معنا منذ أن غادرنا القاهرة أو تدخلي معنا بأي من النقاشات».

نظرت له فريدة في صمت ثم أشاحت وجهها عنه في وقتها كان مسعود يقود السيارة فأوقفه بعض الملثمين

بالقرب من مدخل القرية نظر مسعود لأدم قائلا «يبدوا أن الاحتفال قد بدأ مبكرا».

أبتسم أدم قائلا «يبدو كذلك».

أحاط الملثمون بالسيارة فأقترب واحدا منهم مستفسرا عن وجهتهم فأخبره أدم بأنه قادم لزيارة أقاربه بالقرية، تعجب الملثم ونظر لمن حوله مستفسرا عن وجود أحدا بالقرية بعد أن تم أخلائها فأجابوا جميعهم بالنفي حينها أخبرهم أدم بأنه قادم لزيارة عمته شفاعة، تسمر جميع الملثمين من هول المفاجأة ما هي إلا ثوان معدودة حتى سمحوا له بالدخول للقرية وقادوه الى منزل شفاعة التي كانت هبطت قائلة «مرحبا يا صاحب العهد الجديد، كنت أنتظرك».

***

الفصل الثالث والعشرون

لتبدأ النبوءة

- الساعة الواحدة ظهرا في بهو منزل شفاعة بقرية الخير.

«ما كنا ببشر قط بل عشنا أسياد الظلام أبناء الشيطان والكثير من المسميات المضحكة من أهمها أنه يسري بين أجسادنا دماء الشيطان الملعون، لا يهم ما يقال فنحن سبعة أشقاء ولدنا لأب من الرحالة يحكم قرية صغيرة بالصعيد وأم من الغجر ماتت في ظروف غامضة لا نعلم عنها شيء، ذلك الأب الذي تحالف مع الشيطان وأصبح من أهم تجار الآثار في الجنوب كله بجانب حكمه للقرية التي جعلها سجنا كبيرا قلبه لا يعرف الرحمة لذلك تشبعنا منه صفاته فكان الحكماء يقولون عنا أننا نحمل دماء الشيطان لهذا لم أعد أهتم بكلام من حولي بل كل ما يهم هو مصلحتي وتحقيق مرادي فقط لا غير، أما بوجودك يا أدم فالنبوءة قد بدأت لذلك أخبرني ما تحويه جعبتك »، تلك الكلمات وقعت على مسامعي كالرصاص تخترق أذني من بساطتها وقوتها.

كنا نجلس جميعا في البهو أشقاء والدي وأنا ورفقاء الرحلة « مسعود، أحمد، فريدة» بعد أن استقبلتنا شفاعة ورجالها، أشعر بأن المكان مألوف لي أتفحص كافة جوانبه ولا أهتم

بتلك الأصوات من حولي حتى أوقفني صوت مسعود وهو يقول لي «ألم أخبرك بأنها أفعى سامة، لا تنخدع بكلماتها المعسولة فهي تحاول جذبك لها».

نهضت شفاعة من مكانها قائلة «كنت قد اتخذت شقيقي محمود وذريته أعداء لي حتى جاء لي في المنام يطلب مني الصفح والغفران فجئت أنت بقدميك مسقط رأس والدك لتجمع شمل العائلة من جديد فمرحبا بك».

تنظر لي بعينيها الجامدتين كأنها تبعث لي برسالة لا أفهم فحواها حتى الآن، فنهضت من مقعدي مستأذنا في الخروج من المنزل لاستنشاق الهواء فقبل أن أخرج استوقفتني كلماتها حين قالت « شكرا لحفظك الأمانة يا أدم عندما تعود لنا حديثا مطولا قبل البدء في ما نريده »، لا أنكر أن رغم كلماتها البسيطة شعرت بالانزعاج من داخلي وهذا ما شعر به مسعود فخرج خلفي ليتحدث معي ليشد من أذري لكني لم أهتم، كنت أسير بلا هوادة في طرقات القرية أتابع ما يفعلوه أتباع شفاعة حتى وصلت مرة أخري للمنزل لكن تلك المرة استوقفني ذلك الوادي القاحل خلفه فحاولت الاقتراب منه فوجدت من يجذبني من يدي قائلا « لم يحن الوقت بعد يا صديقي »، فوجدته أحمد مبتسما لكن من داخلي ثار بركان من التعجب والسؤال فما الذي يقصده أحمد.

أشعر بأن الأمر أصبح جنونيا منذ البداية كل ما حولي أصبح غير منطقيا، لكن ما يحدثني به قلبي وعقلي أني في المحطة الأخيرة من تلك الرحلة العجيبة، قطع شرودي صوت من خلفي يقول «أستعد للمواجهات الحتمية فالجنون سمة ذلك المكان والشر هوائه فكن على استعداد لعدوك حذرا من المقربون حولك فالنبوءة ملعونة والحياة قصيرة فأختر ما شئت».

تلفت حولي لأجد مصدر الصوت فلم أجد ألا شفاعة تشير لي بالقدوم قائلة بصوت عالي «تعالي يا أدم أريد الحديث معك» تقدمت نحوها بخطوات ثابتة كان المكان خالي من الجميع ما عدا شفاعة التي ابتسمت لي طالبة مني أن أتبعها فدلفنا لداخل المنزل فوجدتها تغلق الباب، مكتبة خشبية كبيرة في أخر طرقة المنزل عليها نقوش مكتوبة بلغة غريبة رائحة المكان عطنة يغطيها بخور نفاذ وقفت شفاعة أمام تلك المكتبة كأنها تتفحصها ثم التقطت صندوق صغير موضوع على الرف الثاني لتقذفه لي قائلة «افتح ذلك الصندوق».

ترددت كثيرا قبل أن أفتح ذلك الصندوق فوجدتها تبتسم قائلة «أخبروك بأني وحش كاسر قاسي القلب لا أعرف الرحمة، لذلك دعني أعترف لك يا صاحب العهد الجديد بأني

خلقت كذلك فالقدر قد خط سطوره منذ مولدي وأشقائي لكن الفرق بيني وبينهم بأني تشربت الشر بكافة أشكاله مع والدي موسى الرحال الذي حط رحاله على القرية وأهلها، أعلم أنك قد سمعت الكثير لذلك دعني أختصر لك القصة ببساطة شديدة لأن الليل قد أقترب ونحن في انتظار ضيف قادم لزيارتنا، أعلم أن النبوءة تكتمل بك لذلك لم أرد أن الحق بك الأذى لأني على يقين بقدومك ولهذا أنا من أطلب منك التعاون معي لكي يتثنى لنا أخذ الميراث وقتها سوف تقسم بيني وبينك أما الباقي من أعمامك فلا تقلق منهم، فماذا قلت في حديثي؟».

نظرت لها بارتياب شديد خاصة أني أصبحت فاقد الثقة في كل من حولي فمدت يدها لأصافحها فترددت في مصافحتها فنظرت لي مبتسمة ابتسامة باهتة قائلة «مد يدك لتصافحني فهدفنا واحد خاصة أن لدي لك بعض من المفاجآت السارة على أغلب الظن ستنال إعجابك».

انظر لها ويدها الممدودة حينها استجمعت قوتي فصافحتها قائلا «أعلم أن هدفنا واحد لكنك لا تؤتمني يا عمتي أو سيدتي على حسب ما تحبي أن أناديك به، سنتعاون معا حتى ننتهي من ذلك الأمر ويأخذ كل منا نصيبه ليرحل إن لم يكن الميراث كله ملك لي كما يقال».

نظرت شفاعة لي قائلة بلهجة سخرية «ومن أخبرك بأني سوف أسمح لك بأن يكون الميراث كله ملك لك ما أخبرتك به منذ دقائق أن يقسم بيننا الميراث هو صفقة لكي أحفظ حقي فلا يتملكك الغرور فمن الممكن أن تكون صريع بعد فتح باب السرداب المؤدي للمكان المنشود، فالقدر مكتوب فلا تتعجل أيها الشاب والآن قم لتنال قسطا من الراحة فسيأتي الضيف المرغوب لكي نبدأ في فك شفرة اللفافات وذلك الكتاب الملعون».

***

في نفس التوقيت على طريق مصر الصعيد الجديد.

كان حسام يقود سيارته بجانبه شريف متجهين الى قرية الخير بعد أن تأكدوا من ثبات جهاز التتبع الذي تم وضعه في سيارة مسعود، الطريق خالي من السيارات ولا توجد شبكة للهاتف فنظر حينها شريف لحسام قائلا «لماذا تلاحق ذلك الشاب ومن معه؟، فلا توجد أي شبهة جنائية عليه الى جانب أنه لم يتم توجيه الاتهام إليه».

ساد الصمت لعدة دقائق ليتكلم حسام بعدها قائلا «ستجد خلفي ظرف بني اللون أفتحه ثم تحدث بعدها».

أمسك شريف الظرف بعد أن أخذه من المقعد الخلفي فنظر

لحسام الذي أشار عليه بفتحه وقرأته، أخرج ورقة مطوية من ذلك الظرف ففتحها وبدأ في قرأتها باهتمام بالغ بعدها بدقائق نظر له حسام قائلا «أخبرني ماذا وجدت؟».

كان شريف منهمكا في القراءة فأعاد حسام عليه السؤال أكثر من مرة حتى أنتبه له فقال «أن الأمر يبدوا خطيرا فنص الرسالة يحذرنا من ذلك الشاب ومن معه بكلمات غريبة فجعلني أفكر جديا أن هناك سر خطير ورائه».

أبتسم حسام قائلا «الآن عرفت لماذا أتتبع ذلك الشاب وإن صحت شكوكنا سوف أطلب الأذن بالقبض عليه وتوجيه الاتهام له».

عقد شريف حاجبيه قائلا «لكن ألا تعتقد أنه من الخطورة تتبعه بدون علم أو إذن من النيابة العامة أو القيادة في القاهرة؟».

نظر له حسام في صمت ساد لمدة دقائق معدودة ليقطعه سؤال شريف مرة أخري فأوقف السيارة على جانب الطريق قائلا «لا تقلق فلقد أخبرك واحدا من قادتنا بالأمر ونحن الآن بمهمة سرية».

أسند شريف رأسه على المقعد بارتياح فأكمل حسام كلامه قائلا «ساعات قليلة ونكشف الحقيقة كاملة، نل قسطا من

النوم فالمهمة قد تكون طويلة».

***

الفصل الرابع والعشرون

بداية اللعبة

- الساعة الحادية عشر مساءا في منزل شفاعة بقرية الخير.

كانت شفاعة تجلس على كرسيها العاج ببهو المنزل رائحة البخور الغريبة تغطي المكان دخل مسعود عليها ناظرا صوب عينيها فأزاحت وجهها عنه قائلة «أخبرني يا أبن دليلة لماذا عدت للقرية؟». حينها جلس على الكرسي المقابل لها مبتسما فأعادت عليه السؤال أكثر من مرة لتصمت بعدها ويسود السكون المكان لدقائق لينهض مسعود من مكانه قائلا لها بعد أن أدار لها ظهره « لم يعد لأبن دليلة وجود في سجلات الحياة فأنا الآن خادم صاحب العهد الجديد وحارسه، مازلت كما أنت يا شفاعة لم ولن تتغيري فلقد ارتويت بدماء الشيطان من والدك أكثر من أشقائك فأصبح كل ما تفعلينه هو تنفيذ لرغباتك وشهواتك فقط لا مكان للرحمة واللين، قاتلة منذ الصغر لك الكثير من الضحايا أبرزهم والدتك ودليلة، غانية وشهوانية لأقصي درجة و..............».

قاطعته شفاعة في حدة قائلة «الزم أدبك أيها الخادم فأنا ابنة موسى حاكم القرية والآن انا الحاكمة متأصلة تربية

المجتمع الجنوبي بكل ما فيه، عشت حياتي كلها ملكة متوجة مرفوعة الرأس و..........».

قاطعتها ضحكات مسعود الذي قال « هل تظني نفسك حقا تنتمي للمجتمع الجنوبي أري أنك تناسيت أصلك فأنت ابنة أشر أهل الأرض من الرحالة وأمك غجرية فلا تنسبي نفسك لمجتمع له جذوره، فخير دليل على كلامي بأنك استعنت بأبناء عرقك من الرحالة ليكونوا أتباعك».

ضربت بسوطها على الأرض في غضب واضح قائلة «تجاوزت كل حدودك يا ابن العرافة فلا تظن أن هناك ما يشفع لك عندي، أذهب الى بيتكم القديم حتى أطلبك».

نظر لها عبادة قائلا «بالفعل أنا ذاهب الى هناك ما أن ينتهي كل هذا فلنا حساب أخر"، نظرت له شفاعة قائلة « أن كان في عمرك بقية يا عزيزي».

خرج مسعود من المنزل بخطوات بطيئة يتجول في أنحاء القرية المظلمة بعض الشيء حتى وصل لبيته القديم تسمر أمامه لمدة دقائق فهم بفتح الباب فوجد سيفا يخترق جسده من الخلف فسقط أرضا على أعتابه ينزف بغزارة، خطوات بطيئة تقترب منه فوجد ملثم يميل عليه قائلا « أشكرك على تحملك الأمانة طوال تلك الفترة يا عزيزي، لقاءنا في الجحيم »، تحرك الملثم بخطوات ثابتة تاركا خلفه مسعود ينزف

حتى فارق الحياة فوقف الملثم في منتصف الطريق يقول «يوما بليلة تفصلنا عن المراد، أنها البداية».

***

- الساعة الثانية بعد منتصف الليل في منزل شفاعة.

يطرق أتباع شفاعة أبواب الغرف ليستيقظ الجميع فيأمروهم بأن يهبطوا جميعا لبهو المنزل ليجدوا شفاعة تجلس على كرسيها ماسكة لسوطها قائلة « ليستمع الجميع لي جيدا أصبحت القرية مؤمنة الآن بسياج من حديد ليتثنى لنا فعل ما نريد، سيأتي ضيفا لا يرغب برؤية أحد منكم سوى صاحب العهد الجديد أدم أبن محمود ابن موسى، أما من البقية منكم من أبناء دمنا فهو تابع لنا حتى يحين الموعد».

نظر الجميع لبعضهم البعض فنهض أدم من مكانه قائلا لشفاعة «تتحدثين بلهجة غريبة أليس هذا هو الوقت المناسب كي نعرف جميعا حقيقة الأمور كلها، أشعر كأني في متحف شمع يتحرك بأمرك».

ضربت شفاعة بسوطها ثلاثة ضربات على الأرض ففزعت فريدة وعوض من هول الصوت فنظرت لأدم قائلة «عندما يأتي الضيف ستعلم جيدا ما هي الحقيقة، فنحن الآن عائلة واحدة أتحدت بعد فرقة دامت لأكثر من خمسة وثلاثون

عاما».

نظر أدم لأحمد وفريدة متعجبا فهم بالكلام لكن شفاعة قاطعته قائلة « كنت أخبرتك أن هناك مفاجآت كثيرة لك دعني أخبرك أولها حتى أقطع عليك الكثير من المسافات، أصدقاء رحلتك (مسعود، فريدة، أحمد) ما هم إلا تابعين لي فمسعود هو أبن دليلة عرافة قريتنا التي نالت جزائها نتيجة خيانتها بعدها انقطعت أخباره عن القرية كوالدك بل أقاموا معاهدة مع أحد أتباع الشيخ السماوي للخروج من القرية، أما المفاجأة الثانية هي فريدة التي أقنعت الجميع بأنها ابنة إسماعيل الغير شرعية ممثلة قديرة وبارعة تربية يد أمها » حينها وقفت فريدة مبتسمة ابتسامة فخر وانتصار فتحركت نحو أمها لتقف خلفها مباشرة .

وقف أدم مذهولا مما يسمعه عاقدا حاجبيه من الدهشة متذكرا حديثه مع مسعود عنها وشكه بها، فنظر لأحمد الذي وقف مبتسما بتفاخر سائرا نحو فريدة ممسكا يدها يقبلها قائلا «عذرا يا صديقي الأحمق فمغريات الدنيا أقوي بكثير من رابط الصداقة الوهمي بيننا فبالتأكيد لن أنصفك على زوجتي وأمها».

تراجع أدم خطوتين للوراء مازالت «كيف ذلك؟، أليس أنت أحمد أبن الحاج مصطفي صديق والدي وجارنا بالحارة» ثم

نظر لشفاعة قائلة «لم يكذب والدي ومن قابلتهم بأنك أدهي من الشيطان ذاته في كل شيء لكن ما أريد معرفته لماذا أخبرتني بأننا شركاء و..........».

قاطعته شفاعة في صمت تام من جميع الحاضرين من أشقائها «بل أنت شريك رئيسي في كل شيء يا أدم جازفت وقدمت لتنال حقك على عكس طبع والدك الجبان الذي ظل مختفيا طوال حياته حتى لاقي حتفه، لذلك لا تسأل كثيرا ودعنا نتتبه لما هو قادم فالضيف على وصول».

نظر أدم حوله كأنه يبحث عن شيء فقده قائلا « أين مسعود؟».

حينها ابتسمت شفاعة قائلة «لقد أتمم مهمته وتركك لتواجه مصيرك وقدرك، أما الآن فليذهب الجميع الى غرفهم ولتستعد يا أدم معي لاستقبال الضيف».

***

- في نفس التوقيت على الجانب الأخر القرية.

أوقف حسام سيارته بالقرب من تلك المقبرة المكتوب عليها « مقابر عابري سبيل قرية الخير » بعد أن وجد نورا غريبا يخرج منها، ترجل من سيارته خلفه شريف شاهرين أسلحتهم حتى وصلا للباب المعدني الخاص بتلك المقبرة،

كان العرق يترقرق من جبينهم بغزارة بعد أن سمعا أصوات صراخ بداخلها فأشار حسام لشريف بفتح ذلك الباب المعدني معه ، مازال ذلك الصراخ يزداد حينها نظرا لبعضهم ليقوما بكسر الباب عنوة حينها وقف الاثنان متسمرين أمام ذلك المشهد المهيب سبعة حفر موجودة يخرج منها لهبا شديدا وفي أخر المقبرة يقف رجل ملثم بلباس أسود بثبات أمامهم فما هي إلا دقائق معدودة حتى هبت النار بقوة وأختفي ذلك الملثم بعدها هدأت النيران الى أن همدت كليا، خرج الاثنان من المقبرة سريعا ومنها الى السيارة بدون أن ينطقا بكلمة واحدة ، وقفا أمام السيارة يلتقطان أنفاسهم حتى وقف شريف متسمرا فنادي حسام عليه أكثر من مرة الى أن شاهد كلمات مكتوبة على زجاج السيارة الأمامي «الهروب أجدي وأنفع من أن تفقدا حياتكم، أركضوا سريعا فليس للموت سلطان» .

«ما الذي يحدث وما معني ذلك الكلام؟».

نظر حسام لشريف بعد أن استجمع قواه قائلا « لا أدري ما أقول لكننا أمام لغزا غريبا يجب كشف حقيقته، هيا لنكمل طريقنا فنحن على مشارف القرية».

نظر شريف لحسام بعد أن جلس على الأرض قائلا « قبر تشتعل عيونه وملثم غريب بجانب تلك الرسالة، هل يعقل أن

يكون ذلك الشاب على صلة بما حدث؟».

ركب حسام السيارة مشيرا لشريف بالركوب بجانبه قائلا «هذا ما سنعرفه حين نصل هناك».

حين غادرا بالسيارة وابتعدا بمسافة ليست ببعيدة ظهر ذلك الملثم يشاهدهما يبتعدان وهو يقول « لقد اخترتم الموت».

***

الفصل الخامس والعشرون

ضيف على غير العادة

- الواحدة بعد منتصف الليل أمام منزل شفاعة بقرية الخير.

كان الجو هادئ مظلم يخيم عليه الكآبة تقف شفاعة صامتة ممسكة سوطها أمام المنزل خلفها أدم في انتظار ذلك الضيف المزعوم مر أكثر من عشرون دقيقة على انتظارهم حتى لاح من بعيد شعلة قوية في أخر الوادي القاحل الموجود خلف المنزل فأشارت لأدم بأن يتبعها، كان هناك عشرة رجال ملثمين يحيطون بكيان ما غير واضح المعالم يسيرون بخطوات ثابتة حتى وصلا لمنتصف الوادي فتوقفا عن السير حينها تقدمت شفاعة بخطوات ثابتة وخلفها أدم فأصبحا في المواجهة بعد أن وصلا لمكانهم، تحرك الملثمون نحو شفاعة وأدم فأحاطوا بهم بطريقة دائرية ليدخل ذلك الكيان أمامهم قائلا « مضي وقت طويل على انتظارك يا شفاعة وها قد حان الوقت لكي تصبحي في مقدمة الصف خلف صاحب العهد الجديد بدلا من والده» .

نظرت شفاعة للكيان قائلة « لقد أخبرتك من قبل أن صبري ليس له حدود وكل ما أمرتني به قد تم تنفيذه على أكمل

وجه وها قد أتي صاحب العهد الجديد متعاونا وليس عدوا، كل ما ينقصنا الآن هو مباركتك لنبدأ العمل».

ضحك ذلك الكيان ضحكة شيطانية عالية قائلا « شفاعة تحتاج لمباركتي أليس ما تقولينه مزحة سخيفة أيتها الشمطاء، حين ألغيت معاهدة والدتك وأقمت واحدة جديدة مع الشيخ السماوي وقبيلته من أجل مصلحتك وغرضك المعروف لي جيدا أم لاستخدامك وسائل الإيقاع الدنيوية الرخيصة لنيل ما تريديه، لتعلمي أن الوسيط ما هو إلا خادم لنا فاحذري أن تثيري غضبي في الخطوة الأخيرة».

تقدم أدم ببعض من الخطوات ناظرا لذلك الكيان قائلا « لا أفهم ما تقولونه ولا أهتم بذلك كل ما أريد معرفته هو المطلوب منى فقط لأن الأمر أصبح جنونيا».

نظر له الكيان صاحب العيون اللامعة والجسد الضخم قائلا « أنت أساس اللعبة يا صاحب العهد الجديد فلا يغرنك ما تقوله شفاعة وفخرها بإنجازاتها أو ذكائها المصطنع ففي يدك الآن سبعة لفافات وكتاب هو مرجعك فأنت مصدر قوة فكن على قدر قوتك».

نظرت شفاعة للكيان قائلة بحدة بالغة « مازالت أنا أساس اللعبة فأنا من خططت لكل هذا وأقمت جميع المعاهدات حتى أني تنازلت عن نفسي للوسيط من أجل أن يأتي

صاحب العهد الجديد لي».

أدار الكيان ظهره لها فاصطف الملثمون العشرة من حوله يسير بخطوات بطيئة قائلا « ليس الأمر بعجيب على من شاركت والدها في أفعاله الشيطانية وسفكها لدماء أقرب الناس لها أن تفعل أي شيء فالغانية تزني وتدعوا للناس بالصلاح لكن أنت غانية بدماء الشيطان ملوثة منذ صغرك فالكلام الآن ليس له أي معني وأتبعي صاحب العهد الجديد لتنالي ما تريدينه أن هو أراد ذلك ولا تنسي أن تحضري له ضيوفه قبل بدء المراسم فالشيخ السماوي في الانتظار».

أدار أدم ظهره لشفاعة متجها الى المنزل بعد أن اختفي ذلك الكيان ومن معه فحاولت إيقافه لكنها لم تفلح حتى وقفت تضرب بالسوط على الأرض أكثر من مرة قائلة « لا تظن أن بكلمات الضيف التي أخبرك بها أنك في موضع قوة تمهل وتعالي معي فهناك مفاجأة مدوية بانتظارك ولا تنتظر من تماثيل الشمع أن يساندوك فأن حضر السماوي خضع الجميع».

صرخت شفاعة على أتباعها فأتي واحدا منهم مسرعا فطلبت منه أن يأتي بهدايا الوسيط الثلاثة لمنزل دليلة العرافة ليتعرف صاحب العهد الجديد عليهم بعد أن يفك اللفافات والكتاب المجهول، نظر لها أدم ببرود شديد قائلا «

لا أتعجب أي شيء فمنذ وفاة والدي أصبحت الأمور تسير بطريقة جنونية « حينها أدار ظهره لها مرة أخري دالفا لداخل المنزل وهي تضحك بهستيرية قائلة « كنت أظن أن التعاون قد يثمر لكن من الواضح أنك أحمق مثل والدك، لتبدأ اللعبة يا أدم».

***

- في نفس التوقيت على مشارف القرية بخمسة عشر كيلو.

وقف حسام بسيارته على الجانب الأيسر من الطريق طالبا من شريف الترجل من السيارة وفتح الحقيبة الموجودة على الكرسي الخلفي ليأتي بالمصباح الكهربائي، أمسك شريف المصباح الكهربائي بعد أن أشار له حسام أن يتقدم تجاه صخرة متوسطة الطول والحجم يقف أمامها، تقدم بخطوات ثابتة حتى أصبح بجانب حسام فسأله بتعجب عن سر التوقف وطلبه للمصباح الكهربائي فلم يجبه وأنحني يحفر تحت الصخرة حتى أخرج صندوق أسود اللون التقطته بابتسامة نصر، تعجب شريف أكثر فهم أن يسأله فأخرج حسام هاتفه ليقوم باتصال لم يدم دقيقتان.

- « أعلم أنك متعجب من أفعالي خاصة بعد واقعة المقبرة لذلك يا شريف دعني أشرح لك الأمر برمته وسر ذلك الصندوق الذي بحوزتي».

- « أتمنى ذلك فشعوري الآن هو شعور من أصابه المس أو الجنون».

- « أعلم ذلك لهذا دعني أشرح لك الأمر بالتفصيل فما نحن مقدمون عليه ليست بقضية عادية بل قضية شديدة الخطورة، منذ عشرة أشهر وأكثر ورد إلينا العديد من البلاغات في بعض المناطق المتفرقة من قري ونجوع الصعيد النائية تفيد بأن هناك تشكيل أجرامي خاص بالتنقيب عن الآثار وسرقتها والتجارة بها خارج البلاد، الأمر يبدوا طبيعيا فمثلها كمثل أي جريمة لكن ما استوقفني هو العثور على جثث لضحايا في مختلف الأعمار في أماكن التنقيب، بعد البحث أتضح لنا أن هناك قرية أسمها الخير تتزعمها سيدة تدعي شفاعة موسى هي التي تتزعم ذلك التنظيم لكن بالتأكيد لا يوجد أي دليل يدينها أو يدين من معها خاصة أن جميع القرى المجاورة لقريتها يخشونها ويخافون بطشها جمعنا عنه كافة المعلومات المتاحة فعلمنا أن لها أخ يدعي محمود موسي تاجر الأخشاب المعروف هو شقيقها وقد توفي في حادث سيارة بعدها بشهر أو أكثر توفت زوجته وأبنته بالتبني في حريق القصر الشهير وبقي أدم أبنه الوحيد على قيد الحياة».

- «إذن المهمة رسمية وليس كما اعتقدت».

- «بالتأكيد لهذا نحن هنا بصدد كشف الحقائق لكن كن على ثقة بأننا ضيف على غير العادة».

- «بمعني !!!!».

- «كن على حذر حتى تأتي اللحظة المناسبة».

- «هناك سؤال أخير أريد معرفة أجابته».

- «كثير الكلام أنت يا شريف لكن أخبرني فنحن على وصول».

- « كيف عرفت مكان ذلك الصندوق الأسود ومن أخبرك به؟ ».

- «في واقع الأمر يقولون إننا ضباط في جهاز الشرطة يا شريف، أدلف لداخل السيارة فلقد شارفنا على الوصول».

***

الفصل السادس والعشرون

لعبة الموت

- الساعة الخامسة صباحا في منزل شفاعة بقرية الخير.

«لم أذق طعم النوم لأيام فكل الأحداث تسير بخطوات سريعة كأننا في سباق ليس كما كنت أتوقع، شفاعة ليست سوي شيطان على هيئة سيدة صدق والدي حين أخبرني أن ما يسري في جسدها لهي دماء شيطان ، أشقاء والدي ليسوا سوي تماثيل للشمع أو كجنود لعبة الشطرنج بيد شفاعة لا وجود لهم في الحياة، أحمد وفريدة صنيعة شفاعة كضربة صاعقة هبطت من السماء فاختارتني دون عن البشر لضربي، أما مسعود فاختفاءه بعد أن أدي مهمته جعلتني أثق في كلمات أمي بأن لا أثق بأحد، لكن أهم ما في الأمر أني أخيرا توصلت لما بداخلي وهو أني أريد ذلك الميراث لا أنكر أني تناسيت الكثير من الأحداث من موت عائلتي لذلك الصراع بداخلي، نعم أعلم أني في حالة حرب لكنها فيصل لحياتي كلها».

أفرغت الحقيبة من محتوياتها بجانب تلك اللفافات التي أخذتها من شفاعة والكتاب الموجود نصف ساعة مرت أنظر لتلك المحتويات فقط لم أتحرك ساكنا، طرق الباب

عدة طرقات فنهضت لأفتح الباب فوجدته أحمد الذي وقف أمامي مبتسما أشحت وجهي عنه فدخل ورائي قائلا بعد أن أغلق الباب « أعلم أنك غاضب مني فاقد الثقة لكن يا صديقي أحيانا تكون متطلبات الحياة أقوي من أي رابط، ففي فترة غيابك كانت المغريات أقوي فتاة جميلة وهبت نفسها لي ومال وفير بجانب الوعد بأن يكون لي جزء من ذلك الكنز المدفون أسفل أقدامنا، أخبرني كيف هو حالك أمام ما قلته؟».

ابتسمت نعم لأول مرة منذ وفاة والدي أبتسم لكلمات ساذجة تتردد على مسامعي في الكثير من الأفلام العربية، نظرت له قائلا « لا يهم ما تقوله يا عزيزي كل ما يهم الآن هو الوصول لمرادي فلقد تعلمت ألا أثق في أحد خاصة أقرب الناس لي، فلم أتعجب من غدرك فالغدر صفة البشر والوفاء للحيوانات أذهب عني فأمامي أمور كثيرة لابد أن أنهيها».

قبل أن يخرج أحمد من الغرفة دخلت شفاعة مشيرة لي بأن أجمع كل أغراضي من اللفافات لنبدأ العمل، فتحت الحقيبة لأجمع اللفافات فوجدتها تلتقط الكتاب قائلة « أما ذلك الكتاب فسيكون معي حتى ننتهي من فك تلك اللفافات»، هبطنا أنا وشفاعة للدور الأرضي فوقفت أمام باب خشبي لغرفة أسفل الدرج فدلفت لداخل حجرة متوسطة

أضاءتها قوية بعض الشيء حوائطها قديمة تملؤها الأتربة وأنسجة العنكبوت رائحتها عطنة ولا يوجد بها منفذ للهواء أرضية الغرفة مرسوم عليها نجمة سداسية يتوسطها منضدة ومقعدين مقابلين لبعضهما، دلفت لداخل الغرفة خلف شفاعة وأغلقت الباب فنظرت لي قائلة «الآن يبدأ العمل سوف أتركك هنا حتى تنتهي من فك اللفافات ومعرفة فحواها وذلك الكتاب سيكون معي».

جلست على ذلك المقعد واضعا السبع لفافات على المنضدة متفحصا الغرفة حولي بكل ما فيها، كأني في سجن قديم حكم على أن أكون من ساكنيه حاولت طرد ذلك الشعور لكني لم أستطع فنظرت للفافات وبدأت في فك الأربطة الملفوفة حولها بأحكام، سبع ورقات قديمة كالبرديات بها أجزاء من خريطة، ثلاث ساعات أحاول أن أجمع تلك الخريطة على الرغم من بساطتها لكنها كانت تتسم بالتعقيد حتى وصلت لحظة تجميعها فما كانت إلا أنها تحولت لصفحة واحدة مكتوب أعلاها « مدينة الحاكم الصارم الملعونة » ورسم الخريطة الذي يوضح مكان باب السرداب المؤدي لها، دقائق معدودة حتى انقطعت الإضاءة لتهب ريح قوية لم أعلم من أين أتت خاصة أن الغرفة ليس بها أي منفذ تهوية ضحكة قوية تهز أرجاء المكان يتبعها صوت يقول لي « مرحبا يا صاحب العهد لقد طال انتظارك معك خادمك الشيخ

السماوي حارس مدينة الحاكم الصارم وبارم المعاهدات مع بني موسى».

نظرت حولي لعلي أجد بصيص ضوء بلا جدوى فقلت لذلك الصوت « مرحبا بك أيها الشيخ أخبرني لماذا اخترتني أنا دون عن باقي العائلة بل بالأصح كان من المفترض أن يكون والدي وليس أنا».

ضحك الصوت مرة أخري قائلا « بل قدرك هو من أختارك يا أدم بن محمود بن موسى الشيطان، فيخلق من دم الشيطان دم نقي حامل لمفتاح المدينة وصاحب الميراث».

قلت له بصوت يستجمع شجاعته « ما سر ذلك الكتاب المغلف بجلد حيوان ميت؟».

بصوت حاد قال « في يدك مقاليد كل شيء معك القوى والسلطان فكن على قدر المسئولية فذلك الكتاب لا يستطيع أحد قرأته غيرك، في الليل سألقاك حين تتم المراسم وتقدم لي قربان نقي لا يعرف من الدنيا شيء».

قلت له بصوت عال بعض الشيء « لا أريد أن أحمل دم الشيطان أو أسفك الدماء».

قال الصوت بحدة أقوي « أنه قدرك ولك ما شئت فأنتبه للعبة الموت ».

أختفي ذلك الصوت بعدها بدقائق معدودة عاد التيار الكهربائي مرة أخري للغرفة، دخلت شفاعة مبتسمة وهي تقول « أشم رائحة النصر في تلك الغرفة»، حين شاهدت الخريطة التقطتها مسرعة بعد أن ألقت الكتاب لي قائلة « خذ أقرأ ذلك الكتاب وأخبرني ما فيه فالليلة موعدنا» أغلقت الباب على مرة أخري لكن تلك المرة شعرت بقوة تسري في جسدي بطريقة غريبة لا أنكر أنه شعورا رائعا لكني أشعر بشيء غريب سوف يحدث.

***

- في نفس التوقيت على الجانب الاخر من بوابات القرية.

كان حسام وشريف وصلا الى القرية بوابات القرية بمسافة خمسة كيلومترات فاختبأ خلف بيت مهجور على بداية القرية ومن الواضح أنها غرفة للحراس لكنها مهجورة بعد أن هبطا من السيارة لبدء مراقبة القرية للوصول لهدفهم بدء شريف بتجهيز معداته للمراقبة وحسام بجانبه يجهز مسدسه تحسبا لوقوع أي شيء، كان الجو هادئ هدوء قاتلا في القرية فالطرقات خالية ولا يوجد سوي أتباع شفاعة يحرسون القرية فقط.

- « القرية تكاد تكون خالية من سكانها والحراس لا

يحملون أي أسلحة، أليس هذا غريبا؟».

- « لا أعلم يا شريف لكن من الممكن أن يكون الكل نياما فالساعة الآن الثامنة صباحا».

- « أتمزح يا حسام أن أهالي القرى جميعهم يستيقظون من الفجر من أجل عملهم، الطرقات خالية والبيوت مغلقة النوافذ كليا، ماذا يحدث؟».

- « في الوقت المناسب سنتسلل الى القرية لمعرفة ما يحدث هناك فمن الممكن أن تكون تلك السفاحة وجماعتها قد قاموا بقتل كل أهل القرية».

- « أتعتقد ذلك يا حسام؟!، إن صح كلامك فالموضوع أكبر من مجرد جماعة خارجة عن القانون ولابد أن نستعين بالقوى الأمنية للدعم والمساعدة».

- « لذلك نحن في مهمة سرية أيها الذكي لنقل الصورة كاملة للقيادة بالقاهرة ما أن تأكدنا من المعلومة سنقبض عليهم جميعا».

***

الفصل السابع والعشرون

بداية النهاية

- الساعة الرابعة عصرا بغرفة سرية بمنزل شفاعة بقرية الخير.

امسك أدم الكتاب بعد أن فتحه ليبدأ قرأته فوجده مكون ثلاث صفحات سميكة ملمسه خشن مكتوب أعلاه « مدينة الحاكم الصارم وحارسها الشيخ السماوي »، تعجب أدم حينها أنه أستطاع قراءة العنوان فجلس على الكرسي بأريحية شديدة وبدأ يقرأ تلك الصفحات التي احتوت على تفاصيل المدينة وكنوزها وأماكنها لكنه صعق من شيء ما في أخر صفحة فمال وجهه للاصفرار قليلا مع زيادة العرق على جبينه، حينها نهض من مكانه ينادي على شفاعة التي دلفت لداخل الحجرة سريعا قائلة « أخبرني هل توصلت لشيء ما في ذلك الكتاب؟».

نظر لها أدم نظرة حادة لم تتوقعها شفاعة قائلا « نعم توصلت للكثير لذلك أريد منك البدء في تجهيز مراسم فتح ذلك الباب بعد أن نعرف مكانه في الخريطة لأنه من الواضح أنه قريب جدا منا».

لم تفهم شفاعة كلامه فسألته مرة أخري عن فحوى ذلك

الكتاب فلم يجبها سوي بأنه الوحيد المسموح له بأي شيء، كان بهو المنزل خالي فسأل شفاعة عن الجميع فضحكت قائلة « أخبرتك أن تماثيل الشمع ليس لها دورا من تلك اللحظة التي خطت قدماك فيها أرض القرية ففي المراسم دورهم ليس أكثر لكن قبل هذا وبعد أن نكتشف مكان ذلك الباب على الخريطة لدي مفاجأة لك ولا تقلق فلقد حددت موقع السرداب وبدأت في تجهيز المراسم لكن ما يقلقني هو عدم ظهور أي علامة من علامات الشيخ السماوي حتى الآن».

ضحك أدم بشدة قائلا « عن أي علامات تتحدثين يا شفاعة انظري لي جيدا أنا مفتاح كل شيء».

تعجبت شفاعة من ردة فعل أدم وثقته الزائدة فوقفت صامتة لمدة دقيقتان ثم قالت « أنتظر أيها الشجاع فخلال ساعة ستكون المفاجأة لك وتذكر اتفاقنا فنحن شركاء في كل شيء».

رمي أدم الكتاب على المنضدة بعد أن جلس على كرسي شفاعة قائلا «لأخذ قسطا من الراحة قبل البدء» فنظرت له شفاعة قائلة « شاب أحمق ومتهور لا تعلم ما نحن مقدمون عليه لذلك دعني أخذك في جولة قبل غروب الشمس». نظر لها أدم مستفهما فأشارت له بأتباعها فنهض من مكانه يسير

خلفها بخطوات حذرة، اتجهت شفاعة نحو الوادي القاحل خلف المنزل أرض جرداء مشققة لم تروها المياه منذ عقود خالية من أي شيء بجانبها الأيمن تبة خفيفة من الصخور والرمال وفي أخر الوادي باب ضخم طوله مترين حديدي خلفه باب خشبي وعلي يساره شجرة ضخمة خالية من أوراقها، كانت شفاعة وخلفها أدم يسيران في الوادي حتى وصلا لمنتصفه فوقفت شفاعة ناظرة للأرض قائلة « هنا كانت تقدم القرابين وتتم لقاءاتنا بالوسيط بيننا وبين الشيخ السماوي وقبيلته حراس مدينة الحاكم الصارم، لذلك أتبعني لذلك الكوخ الموجود على تلك التبة الصخرية فهناك ستكون المفاجأة».

سار أدم خلفها يتفحص الوادي حتى وصلا للتبة الصخرية الموجودة بالجانب الأيمن فنظرت له قائلة « هنا تكمن مفاجئتك لذلك سأتركك تصعد لتكتشفها بنفسك». نظر لها أدم بتعجب ودهشة فسار أمامها متجها للتبة، صعد لذلك الكوخ الخشبي السميك ففتح الباب ليجد ثلاثة أشخاص ملثمين يجلسون على الأرض فطلب منهم أن ينهضوا فسمع صوت يقول « مرحبا يا أدم، كنت أعلم أنك ستفعلها»، فزع أدم من ذلك الصوت فنظر لهم متفحصا مرة أخري طالبا منهم أن يكشفوا وجههم فهاله تلك المفاجأة والديه بجانبها مريم أخته.

كانت المفاجأة مدوية زلزلت كيان أدم فشعر بأن الدنيا تدور حوله بسرعة مبالغ بها والأرض تهتز بعنف شديد، نظر لهما في ذهول وعيناه يملأهما الدموع فالوضع غير منطقي لا يقبله عقل فكيف للميت أن يعود للحياة، في ظل تلك المشاعر المتضاربة تدلف شفاعة لداخل الكوخ قائلة «أخبرني عن شعورك يا أدم بعد تلك المفاجأة المدوية».

نظر لها أدم نظرة انكسار واستفهام قائلا «كيف ذلك؟، هل ما فات كابوس مخيف وقاس عشته واستيقظت لأجد نفسي في حلم أخر أشد قسوة؟».

كانت نعمات تقف تملأ الدموع عينيها لا تتحرك كالصنم فتقدم محمود نحو أدم يمد يده ليمسكه فتحاشاه بدفعة قوية قائلا « لا أريد منكما أي حديث فكيف حالكما وأنتم سبب لبؤس أبنكم الوحيد، أدخلتموه في لعبة ليس له أي ذنب فيها سوي أنه أبنكم، من كان يصدق أن يكون موتكم مسرحية هزلية قذرة والسبب غير معلوم، أهو بسبب ذلك الميراث؟».

نظر أدم لشفاعة قائلا بحده واضحة على معالم صوته «أخبريني عن تلك المسرحية الهزلية ولماذا اخترتموني أنا؟».

نظرت شفاعة لمحمود متسائلة إن كان سيجيب أدم أم

تجيبه حينها نكس رأسه وأدارت نعمات ظهرها لهم لتجلس على الأرض تبكي ومريم واقفة بينهم تشاهد ما يحدث، نظرت شفاعة لأدم قائلة «سأخبرك أنا، تقول النبوءة أن نسل موسى الشيطان السبعة سيكون واحدا منهم هو صاحب العهد ومفتاح السرداب المؤدي لمدينة الحاكم الصارم وعلي أساسها أقام جدك المعاهدة مع الشيخ السماوي لذلك، لكن بسبب لعبة من دليلة العرافة بعد أن عرفت بأمر ذلك الميرات قررت أن تزيح محمود عن تلك اللعبة خاصة بعد أن وضعت في طريقه صندوق العهد الصغير الذي نص على عقد صفقة مع أحد أبناء الجان أو الشياطين وبما أن المنطقة كله تخضع للشيخ السماوي وقبيلته فتم عمل الصفقة مع واحدا منهم وكان الاتفاق على أن يهرب محمود من القرية ويمنح المال والجاه مقابل أن يقدم من دمه صاحب عهد جديد يكمل مسيرته، قام والدك بخرق الاتفاق حين ظهرت مريم لشقيقه فبطل العقد ما بينهم فأستوجب أن يقدم روحه كما هو منصوص لكن والدك قام بالاتصال بي فقمت بعقد صفقة مع الوسيط بعد رفض الشيخ السماوي الظهور لخرقي للمعاهدة على أن يكون محمود وأسرته هم القربان الأسمى للشيخ السماوي بجانب أن تكون أنت صاحب العهد الجديد، فقمنا بالتخطيط معا من حادث وفاته الي حريق القصر حتى نأتي بك هنا فلا تكتمل المراسم إلا بوجود الأشقاء السبع من نسل

موسي الشيطان».

نظر لها أدم بحدة قائلا بسخرية « قصة طريفة مضحكة بعض الشيء ولا يهم ما أخبرتني به فمن الأفضل أن نبدأ العمل».

أشارت شفاعة للجميع بالخروج من الكوخ ليتبعوا خطواتها متجهين للمنزل فتتصدر المقدمة ومن خلفها محمود ونعمات خلفهم مريم تمسك في يد أدم تخبره بأنها تفتقده، ما أن وصلا للمنزل فوجدا الجميع يجلس في بهو المنزل وأتباع شفاعة يخرجون بعض من الصناديق للخارج أمام المنزل، صعق جميع الحاضرين عندما شاهدوا محمود وزوجته مازالوا حيين ولكن الغريب في الأمر الذي جعل أدم ينتبه لها أنهم لا يتحدثون ما عدا فريدة وأحمد.

أمرت شفاعة الجميع بالجلوس ما عدا أدم بعدما ضربت بسوطها على الأرض ثلاثة ضربات متتالية ثم قالت « الليلة هي المنتظرة التي طالما حيينا جميعا من أجلها نحن أبناء موسى أصحاب ميراث مدينة الحاكم الصارم ستبدأ المراسم بعد الساعة التاسعة مساءا فيا أبناء دمي لتستعدوا ولتنحوا خلافاتنا لحين أن نحصل على الميراث، يا أدم أعلم جيدا أنك المفتاح لذلك تأمر تطاع فلا راد لكلمتك اليوم».

تقدمت شفاعة نحو أدم ببعض الخطوات هامسة في أذنه

قائلة « لكن قبل هذا يجب علينا أن ننظف الفوضى من حولنا، تعالي معي».

صعدت لشرفة الطابق الثاني وخلفها أدم الذي أمر الجميع أن يتبعوه فوجد أن هناك عشرة صناديق موضوعه على خط مستقيم أمام المنزل نظرت شفاعة لأدم مبتسمة قائلة « لتشاهد عرض تنظيف الفوضى « ، أمرت شفاعة جميع أتباعها وعددهم خمسين حارسا من الرحالة أن يجتمعوا أمام منزلها فما هي إلا دقائق معدودة فتجمعوا حينها أمرتهم أن يفتحوا تلك الصناديق الضخمة، بعد أن فتحوها كان كل صندوق مليء بالذهب حينها أخبرتهم بأنها ملكهم جميعا فلهم ما يشاؤوا فبدأ القتال بينهم بعد أن لمعت عيونهم ببريق الذهب، ساعة من القتال المتواصل أسفر عن مقتلهم جميعا فجرت دمائهم كأنهار أمام المنزل وفي طرقات القرية.

نظرت شفاعة للجميع قائلة « نحن أبناء الرحالة الطمع هو صفتنا الأساسية ومنها قمت بتنظيف الفوضى».

ضحك أدم بصوت عالي قائلا « والدي العزيز كان يخبرني بأنه من أصول صعيدية وأنت تقولي من الرحالة وذلك تأكدت منه تلك اللحظة خاصة أن الكذب والخيانة من صفاتكم فليس من أهل الصعيد كاذب أو خائن، نعم في كل مكان يوجد الجيد والقبيح لكن معكم لم أري إلا كل قبيح».

نظر محمود له قائلا « تأدب يا أدم فأنا والدك وما فعلته كان لمصلحتنا جميعا».

نظرت شفاعة لأدم الذي قال لمحمود بحدة « نعم بدليل كل ما فعلته من كذب وخيانة لأقرب الناس لك لتصل لمرادك، لكن ما تجهله أن كل ذلك الميراث هو ملك لي لهذا كن على حذر حين تتحدث معي».

ساد الصمت لدقائق حتى قطعته شفاعة قائلة « لتستعدوا لمراسم استقبال الشيخ السماوي وفتح باب الحياة لنا فمدينة الحاكم الصارم ستكون ملكنا اليوم».

في نفس التوقيت كان حسام وشريف يراقبا الموقف عن كثب من غرفة الحراس الموجودة بأول القرية، حين شاهدا المعركة بين أتباع شفاعة وقتلهما لبعض وصناديق الذهب قررا أن يتسللا للقرية حتى يتثنى لهما مراقبة الموقف عن قرب حتى يأتي الوقت المناسب للقبض عليهم.

- «ما الذي شاهدناه الآن؟ أنها مذبحة بكل المقاييس بجانب تلك الصناديق التي تحتوي على الذهب يعد من الدلائل القوية للقبض عليهم».

- « أنتظر يا شريف ولا تتعجل فما شاهدناه لهو بداية فقط فالوضع أكبر وأخطر بكثير مما تتخيله لهذا دعنا ندخل

القرية لنستكشف ما فيها».

- « أثق بكلامك يا حسام لكن أمامنا دليل واضح وأثبات».

- « دعنا ننتظر فأنا على ثقة بأن هناك شيء ما سيحدث».

ترك شريف ما في يده متعجبا من ثقة حسام الزائدة قائلا « أتعلم شيء تخفيه عني؟!».

نظر حسام لشريف بحدة مبالغ بها قائلا «لا تنسي مكانتك يا شريف فمعزتك في قلبي لا تسمح لك أن تتجاوز حدودك فأنا من اخترتك لتلك المهمة فلا تجعلني أندم على ذلك وأستعد سنتحرك في غضون نصف ساعة لقرية لنكشف ما شاهدناه وننهي تلك القضية التعيسة».

***

الفصل الثامن والعشرون

نهاية لعبة الموت

- الساعة التاسعة مساءا أمام منزل شفاعة بقرية الخير.

وقف أدم أمام المنزل بعد أن أبدل ثيابه في غرفته بملابس سوداء ينظر حوله ليجد صناديق الذهب وأتباع شفاعة قد اختفوا الطرقات مظلمة بعض الشيء لا يوجد أحد، ظل واقفا نصف ساعة لعله يجد ما يطمئنه فلما يأس دلف لداخل المنزل يبحث عنهم جميعا فلم يجد أيا منهم حينها تجول في طرقات القرية حتى وصل لأحد البيوت بابه مفتوح ونوره خافت لما دخل وجد رأس مسعود معلقة أمامه ففزع من هول المنظر لكنه تمالك نفسه حين تذكر شفاعة وأفعالها من أجل الوصول لغايتها، مازال يسير في الطرقات حتى تعرض لضربة شديدة على رأسه أفقدته الوعي.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كان أدم منكب على الأرض بعد أن تلقي تلك الضربة فوجد نفسه أمام كوخ طيني في الوادي القاحل وعائلته جميعا يجلسون في دائرة أمام حطب مشتعل متشحين جميعهم بالسواد لتخرج شفاعة تنظر له قائلة « أنهض يا صاحب العهد الجديد فالمراسم سوف تبدأ »، نهض أدم متفحصا ذلك المشهد بتمعن فتراجع

خطوتين حين شعر بأنه في ذلك الكابوس الذي كان يراوده منذ مدة وتأكد منه حين خرجت شفاعة تضرب بسوطها الأرض العديد من المرات قائلة «لتنهضوا يا أبناء موسى الشيطان ليبدأ احتفالنا »، انشقت الأرض عن عشرة حراس ملثمين يصطفون صفين ومن خلفهم قامت العائلة بما فيهم أحمد وفريدة لتدخل شفاعة لداخل الكوخ وتخرج بسرعة وفي يدها مريم مغطاة متشحة بالسواد، حاول أدم أن يقترب من شفاعة فوجد الملثمون يمنعونه فبدأ ينادي على الجميع فلم يجبه أحد حينها تقدمت شفاعة نحوه بعد أن أعطت مريم للحراس تقول « لا سبيل للتراجع يا أدم فلا تفعل أي شيء أحمق قد تندم عليه».

نظر أدم لشفاعة قائلا لها بعد أن بدأ يستوعب ما حوله « أعلم كل ما يحدث لكن لماذا تأخذين مريم معنا فهي خارج الحسابات».

ضحكت شفاعة قائلة « لا يوجد فردا من أفراد عائلة موسى إلا له دورا فعالا في تلك المراسم فأتبعني وتشجع».

نظر لها أدم في ذهول قائلا « هل يعقل أن تكون هي القربان؟! » حينها نظرت له شفاعة بحدة ثم بدأت في السير خلف أشقائها والملثمون وهي تقول « للمجد أتينا وللمجد نحن أهله، بقوة أهل الدار وببركة الشيخ السماوي وبكل أل

بيته من مريدي أهل بيت العظيم الأكبر، فلتفتح لنا باب النجاة ولتلقي علينا بنورك كي تغمرنا السعادة الأبدية وللنعم بمقدساتك إلى أبد الآبدين، لتقبل قرابيننا ودمائهم الطاهرة لتروي بها أرضك ولينعم به أتباعك من بعدك يا صاحب المجد الأعظم» .

شعر أدم بقوة روحية هائلة تتحكم به كليا فسار خلفهم كأنه مغيب حتى وصلا لذلك الباب في أخر الوادي فوجد أن الشجرة قد اشتعلت بنار عظيمة تلتهما بشراسة بالغة الي جانب أن أربعة من الملثمين كانوا قد أحاطوا بمريم ليأخذوها أمام الباب، دق قلب أدم بعنف شديد وارتعشت أوصاله حين شاهدت شفاعة تقف بمريم عند الباب ومن خلفها يقف والديه وأشقائهم ومعهم فريدة وأحمد يحيط بهم الحراس العشر الملثمين ، في نفس التوقيت على التبة الصخرية كان هناك من يراقب تلك المراسم بدون أن يشعر به أحد فقد كان مختفي في ظلام الكوخ الموجود أعلي التبة.

***

في نفس التوقيت كان شريف وحسام يراقبان الموقف عن كثب بعد أن دخلا القرية واكتشفا اختفاء جثث أتباع شفاعة وصناديق الذهب ، نظرا لبعضهم في تعجب أمر حسام شريف

بأن يفتش المنزل كله لعله يجد أي شيء قائلا « أدخل المنزل وفتشه جيدا وأنا سوف أقوم بالتجول في الطرقات لعلي أجد أي منهم أو دليل يدلنا على ما نحن فيه من جنون»، دلف شريف للداخل يبحث عن أي دليل حتى نادي على حسام من شرفة المنزل قائلا «هناك حريق يشتعل في أخر ذلك الوادي وأناس كثيرين متشحين بالسواد»، حينها أمره حسام بالنزول سريعا فهبط قائلا «يبدو أن هناك شيئا مريبا يحدث في أخر ذلك الوادي».

نظر حسام له مبتهجا قائلا « يبدوا أن الليلة صيدا ثمينا فهيا لنراقب الموقف عن قرب».

نظر له شريف مستفهما « أليس من المفترض أن نطلب الدعم حتى نضبطهم متلبسين فالدليل واضح أمامنا».

زفر حسام ضيقا قائلا « وأين هو دليلك يا شريف؟، لا تتعجل الأمور فالدعم جاهز للتحرك لكن يجب أن يكون هناك دليلا ماديا لذلك، دعنا نذهب الآن».

سار حسام وخلفه شريف بخطوات مسرعة حتى وصلا لأحد المنازل التي تطل على أخر الوادي ليشاهدا ما يحدث فوجدا الجميع يقفون أمام ذلك الباب غريب الشكل، أثناء المراقبة لاحظ شريف أن هناك عيون تلمع فوق التبة الصخرية المقابلة لهم فحاول لفت انتباه حسام الذي لم

يكترث وظل ينظر لذلك التجمع قائلا «يبدو أن ذلك الباب وراءه سرا خطيرا وإلا ما كان هذا التجمع موجود».

***

«يبدوا أنني على حافة الجنون فالأمور آلت الى عدم واقعيتها فمن والدين مزيفين قاما بتضليل ولدهم واقتياد أبنتهم بالتبني لحافة الهاوية، ميراث ضخم وشيخ من الجن متحكم في عائلة بأكملها بجانب خيانة صديقي وخداعه هو وابنة شفاعة لي، لكن ذلك لا يهم كل هذا فنصاب الأمور كلها في يدي ذلك الباب لن يفتح إلا بي وما تحتويه من كنوز قد تغير مجري حياتي بالكامل كذلك ظهور الشيخ السماوي المنتظر، فالقوة أنا ولا غيري هنا يملك زمام الأمور».

كنت أقف أمام الباب بعد أن اخترقت ذلك الجمع الملتف حول الباب يحيطه الحراس الملثمون من الجانبين، تقف شفاعة أمام الباب ممسكة بيد مريم التي بدأ الذعر والبكاء يتملكها تنظر لي بعيونها التي تغرقهما الدموع كأنها تقول لي « أنقذني يا أخي » تقدمت بخطوات ناحية شفاعة التي أخرجت خنجرا فضي اللون نصله حاد لامع لتقدمه لي، حينها وجدت جميع الموجودين يجثون على ركبهم يرددون كلمات شفاعة في مناجاة الشيخ السماوي ومازالت يدها ممدودة بذلك الخنجر.

كان جسدي يرتعش بشدة مع تسارع دقات قلبي نظرت الى شفاعة قائلا بصوت مرتعش «لماذا تمدي يدك لي بذلك الخنجر؟ ولما تمسكي مريم هكذا اتركيها دعيها وشأنها فليس لها ذنب في تلك اللعبة».

نظرت شفاعة لي قائلة بحدة «أن مريم هي مفتاح الدخول والقربان المطلوب لظهور الشيخ السماوي وفتح باب السرداب المؤدي للمدينة».

تراجعت خطوتين للخلف فلا يقبل عقلي منطق ذبح مريم كقربان فقلت لها «لا أستطيع فعل ذلك فهي أختي الصغيرة لماذا على فعل ذلك؟، دعيها وشأنها».

مدت يدها أكثر قائلة بحدة واضحة « ليس هذا وقت العواطف أبعد كل ذلك تخبرني بأنك تشعر بالشفقة على تلك اليتيمة التي ربياها أبويك من أجل تلك اللحظة».

كانت كلماتها كالصاعقة لي فشعرت بزلزال تحت أقدامي والدنيا من حولي تدور بداخلي الكثير من المشاعر والاضطرابات، ما هي إلا ثوان معدودة حتى شعرت بتلك القوة تتملك منى مرة أخري لتتحكم بي فالتقطت ذلك الخنجر من يد شفاعة بثقل شديد فقد كنت أقاوم لكن تلك القوة كانت أشد مني بكثير، كان ذلك الصوت المخيف يحدثني في عقلي قائلا «قدمها .... قدمها.... قدمها فالشيخ

السماوي في انتظارك». وما هي إلا ثوان معدودة حتى وجدت نفسي أنحر عنق مريم مع صراخها وانا أبكي ومن حولي يرددون كلمات شفاعة بصوت عالي، صوت ارتطام عالي يليها ضحكة قوية تملأ المكان يتبعها صوت يقول « أن موسى الشيطان فهو حي فيكم وفي دمائكم، مرحبا بصاحب العهد الجديد».

في فزع واضح على معالمي صرت أتلفت حولي لعلي أجد مصدر الصوت حينها نظرت لمن حولي فوجدتهم مازالوا يرددون كلمات شفاعة وجثة مريم ملقاة على الأرض وشفاعة تنظر للباب الذي يفتح بفرحة عارمة، وجدت الصوت يخبرني بأنه لا يمكن لحد سماعه أو رؤيته إلا صاحب العهد الجديد فلما سألته عن السبب أخبرني بأن الاتفاق أصبح بيننا فقط فتح الباب أخيرا سلما طويلا من الحجارة، طلب مني الهبوط أولا ولا أنظر خلفي حينها بدأت بالهبوط حتى وصلت لأول المدينة.

***

كان الضابطين يراقبان الموقف عن قرب فهناك جريمة قتل تحدث، أناسا يذبحون على يد الملثمين أما الباقي فقد دخلوا تلك البوابة التي فتحت بطريقة غريبة، نظر شريف لحسام بذعر قائلا «أشاهدت ما يحدث أنها لمذبحة بكافة المقاييس

سوف أطلب الدعم فالأدلة واضحة والموضوع أصبح خطيرا».

نظر له حسام بغضب قائلا «أنتظر حتى يخرج بقيتهم من ذلك الباب أو أن واحدا منا يدخل خلفهم ليكشف حقيقة الأمر فما ظهر أمامنا لن يصدقه أحد».

قال شريف بحدة وغضب «لا بل سأطلب الدعم فما يحدث لهو درب من الجنون».

حينها قال حسام بشدة « أخبرتك أن تنتظر فأنا رئيسك وليس أنت». نظر شريف لحسام في تحد واضح قائلا «لقد بدأ الشك يتسلل في قلبي اتجاهك يا سيادة النقيب حسام فلماذا تريدني أن أنتظر وأنا أشاهد تلك المذبحة تحدث أمام عيني، غير ذلك تتعامل ببرود شديد مع الموقف كأنك عشته من قبل لهذا سأطلب على اللاسلكي الدعم».

التقط شريف جهاز اللاسلكي مديرا ظهره لحسام يتابع الموقف عن كثب فوجد أن الحراس الملثمين وجثث القتلى قد اختفت فبدأ بالنداء حتى باغته حسام لينحر عنقه بسرعة كبيرة قائلا « يا غبي لن يصدقنا أحد فكل ما يحدث لهو درب من الخيال والجنون، القانون له الواقع الملموس والأدلة المثبتة بجانب أني كنت أريدك معي تشاركني بعض من تلك الكنوز الموجودة بالأسفل خاصة قبل أن يتم مصادرتها لكنك

تعجلت بأمرك، عذرا يا صديقي العزيز».

أمسك حسام اللاسلكي بعد أن نادته عمليات الشرطة كثيرا فأخبرهم بأن الوضع هادئ بعض الشيء وسوف يوافيهم بما هو جديد.

***

هبط أدم ومن خلفه شفاعة يليها والديه من خلفهم أحمد وفريدة لأول طريق المدينة الحجرية حوائطها عليها نقوش فرعونية ورسومات لها ثلاثة طرق يتوسطها قصر عليه تمثال فرعوني من الذهب بارز في أرجاء تلك المدينة الصغيرة، تشكل الشيخ السماوي للجميع كان رجلا طويل القامة ضخم الجثة اسمر البشرة وجهه شاحب فتعجب أدم قائلا « ألم تخبرني بأنك لن تظهر إلا لي». فلم يجبه، بدا على جميع الحاضرين الانبهار والتعجب فقالت شفاعة بصوت يملئه الفرحة « لقد كنت أتشوق لرؤيتك أيها الشيخ السماوي فعشت عمري كله أحلم بتلك اللحظة».

نظر لهم الشيخ السماوي بعينيه اللامعتين قائلا « بل كنتم تتشوقون يا أبناء موسى الشيطان لميراثكم وها أنتم في مدينة الحاكم الصارم فلكم ما تريدون، لكن أخبروني أولا هل تعرفون ما هو ميراثكم؟». فنظر الجميع لبعضهم البعض وعلي وجههم علامات التعجب قائلين في صوت واحد ما

عدا أدم « لا نعرف»، حينها نظر أدم لهم باستهزاء قائلا «لكني أعرف ما هو الميراث لذلك أيها السماوي أريد منك أن تبدأ لعبة الموت».

ضحك السماوي ضحكة رجت حوائط المدينة كلها قائلا «قبل أن نبدأ أخبرهم يا أدم ما قرأته في الكتاب الملعون».

أشار أدم برأسه قائلا « لقصر الحاكم الصارم ثلاثة طرق من بوابة المدينة لكل طريق منهم أشخاص يسلكوه كل منهم مكتوب قدره فيها الصائب فيكم هو من يسلك الطريق الصحيح، الفائز من يصل للقصر ليفوز بذلك كأس الفرعون الملعون المليء بدماء الحاكم الصارم الذي يعطي الخلود لشاربه، أيضا هناك الكتاب المحرم الذي يفتح بوابة بيننا وبين أهل العالم الاخر وعالم الجان أما الباقي فهي كنوز من الذهب بجانب عشرة أنابيب من الزنبق الأحمر الذي يعطي القوة لشاربه». نظر الشيخ السماوي للجميع قائلا « ليس هناك وقتا فلتبدأ اللعبة» ثم نظر لمحمود مكملا حديثه قائلا « لكن ذلك لن يعفي بعضكم من إتمام صفقته فبوجودكم هنا أصبحت أرواحكم ملكا لي».

نظر أدم للجميع فسلك أحد الطرق متجها لقصر الحاكم أما شفاعة فتتبعته تذكره بأنهم شركاء في كل شيء فكان طريقهما ميسرا وسلسا، أحمد وفريدة سلكا طريقا أخرا

ما أن وصلا لمنتصفه حتى سمع من في المكان صراخهم، محمود ونعمات سلكا الطريق الأخير لكن لم ينج منها سوي محمود الذي فضل التضحية بزوجته من أجل الوصول.

حين وصل أدم وخلفه شفاعة يتبعهم محمود وقف الشيخ السماوي أمام باب القصر قائلا «ألم أخبركم بأن تلك الطرق مكتوب فيها أقداركم فالبعض منكم قد عماه الطمع ولمعان الذهب فقرر أن يغامر بحياته لعله يصل للمنشود فخسرها، أما الاخر فقد عمت عيناه الأنانية وحب الذات وشهوة التملك فضحي بأعز ما يملك ليصل الى هنا، أما البقية فما بين كفتي الخير والشر يتأرجحا لذلك أنتم الثلاثة من تبقيتم من عائلة موسى الشيطان واحدا منكم خارج الحسبان أما بقيتكم فقتالكم للموت، الناجي هو الوحيد الذي يستطيع الدخول مع صاحب العهد الجديد». نظر محمود وشفاعة لأدم الذي أدار ظهره صاعدا الدرج واقفا بجانب الشيخ السماوي بعد أن وصل للباب ينظر إليهم قائلا «أخبروني عن حالكم الآن»، حينها بدأت شفاعة بتسديد ضربات متتالية من سوطها لمحمود الذي حاول أن يتفاداها بكل الطرق حتى تعثر في حجرة أسقطته أرضا فأجهزت عليه معلنة انتصارها، نظر لها الشيخ السماوي قائلا «أنها النهاية يا أبناء موسى الشيطان». ما أن وصلت لباب القصر فعاجلها أدم بضربة من نفس الخنجر الفضي الذي قتل به مريم أخته حينها

فتح باب القصر ليعلن عن استقبال صاحب العهد الجديد، كانت حوائط القصر مصنوعة من الذهب منقوش عليها رسومات لمعارك الحاكم الفرعوني الصارم الي جانب بعض النقوش باللغة الهيروغليفية التي تحكي عن أمجاد وبطولات ذلك الحاكم، يتوسط القاعة كرسي كبير مصنوع من العاج والذهب يجلس عليه مومياء فرعونية بيده كأس من الذهب مطعم بفصوص من الماس، أمام الكرسي يوجد ثلاثة صناديق كبيرة من العاج بجانب الذهب اللامع الذي يغطي أرضية القصر.

نظر أدم للشيخ السماوي قائلا « أخبرني ما هي الفائدة التي تعود عليك من حصولي على تلك الثروات الهائلة».

ضحك الشيخ السماوي قائلا « كل ما أريده ذلك الكتاب المحرم ». تعجب أدم من كلمات السماوي قائلا « كيف ذلك وأنت حارس المدينة لك ما شئت منها؟، أليس ذلك غريبا!».

نظر الشيخ السماوي لمومياء الحاكم الصارم قائلا «أن العهد الذي بيني وبين كهنة الفرعون نصت على عدم السماح لي بأخذ أي شيء من داخل المدينة طالما أنا المسئول عن حراستها وقبيلتي، لذلك كان اتفاقي مع موسى ووالدك أن يكون لي نصيب من ذلك الميراث وهو ذلك الكتاب المحرم».

سار أدم نحو الثلاثة صناديق يفتحهم فوجد في أول

صندوق ذهب ذو بريق لامع بجانب حلى ملكي مرصع بالجواهر، أما الصندوق الثاني فكان به العشرة أنابيب من الزنبق الأحمر، أما الصندوق الثالث فكان به الكتاب المحرم مغلف بجلد حيوان الماعز عليه كلمات باللغة الهيروغليفية ما أن أخرجه حتى تلقي ضربة قوية أفقدته الوعي تماما.

***

الفصل الأخير

المحاكمة

- الساعة العاشرة صباحا بعد مرور أربعة أشهر في أحد قاعات المحكمة.

أمام قاعة المحكمة اصطفت عشرات من الصحفيين ومراسلين القنوات الفضائية لمتابعة جلسة المحاكمة في قضية «سفاح قرية الخير بصعيد مصر»، وقفت أحد المراسلات قائلة «مازالت قضية سفاح قرية الخير تشغل الرأي العام بكافة طوائفه في المجتمع فكيف لشاب في مقتبل العمر أن يذبح عائلته بالكامل بل ويقوم بقتل ضابط للشرطة حيث تم ضبطه بجانب جثث القتلى في منزل عائلته بالقرية فتم القبض عليه عن طريق قوات الشرطة المصرية بقيادة النقيب حسام صلاح وحين تمت مواجهته بجرائمه أنكر القاتل كل ما هو منسوب إليه ، فيا تري هل القضاء المصري سوف يحسم الأمر اتجاه ذلك السفاح».

***

كانت القاعة مزدحمة على أخرها مليئة بالمتابعين للقضية والصحفيين ومراسلو وسائل الإعلام، كان في أول صف الحضور شاهد الإثبات الوحيد النقيب حسام صلاح المسئول

عن ملف تلك القضية بجانب بعض من أهالي القرية بجانب محامي الدفاع الذي عينته هيئة المحكمة للدفاع عن أدم، أمامهم كان يجلس ممثل الادعاء وكيل النيابة ويقف بجانبه موظف المحكمة فما هي إلا دقائق معدودة حتى صرخ الموظف قائلا «محكمة»، دخل القاضي والمستشارين ليجلسوا على مقاعدهم يأمرون الحضور بالجلوس.

نظر القاضي للأوراق الخاصة بالقضية أمامه قائلا « بسم الله الرحمن الرحيم نبدأ جلستنا في القضية رقم ٥٠٤٠ لسنة ٢٠١٠ المعروفة ب (سفاح قرية الخير) ضد المتهم أدم محمود موسى بتهمة القتل الجماعي التي راح ضحيتها أبناء عائلة موسى وذويهم بجانب قتله المتعمد لضابط الشرطة الشهيد شريف منتصر وبعد سؤال المتهم عما نسب إلية أنكر صلته بتلك الجرائم لهذا اليوم ستكون جلستنا في تلك القضية لذلك فليتفضل ممثل الادعاء بالتكلم وسماع شهادة النقيب حسام صلاح في ذلك الأمر مع وجود محامي الدفاع للمتهم المعين من قبل هيئة المحكمة».

قام ممثل الادعاء شاكرا لسيادة القاضي بعدها بدأ حديثه قائلا « لا أعلم من أين أبدأ سيادة القاضي فالمتهم الماثل أمامكم قد أرتكب جريمة مكتملة الأركان خطط لها ونفذها بدقة وذلك في سبيل غايته الشيطانية التي راح ضحيتها

أفراد عائلته وأخص بالذكر أخته بالتبني التي أزهق روحها بكل برود، حين تم سؤاله عما نسب إليه أدعي الجنون فبدأ يخبرنا في التحقيقات بميراث الشر والشيخ السماوي والقرابين، كلام ليس له علاقة بالواقع خاصة بعد ذهاب قوة الشرطة لموقع الحادث بعد طلب الدعم من النقيب حسام صلاح وجد الجثث متناثرة حوله منزل العائلة وبداخلها لكن ليست قضيتنا اليوم قضية القتل بل قضيتنا هي قضية مجتمع كان فيه الجهل والطمع عنوانا حولت شابا يافعا متعلما لقاتل يسفك الدماء من أجل بريق المال، لذلك سيدي القاضي أرجوا بعد سماع شهادة شاهد الإثبات الوحيد أن يكون الحكم عاجلا غير أجلا حتى يكون عبرة لغيره ممن تسول لهم أنفسهم بقتل البشر بغير حق ... وشكرا».

نظر القاضي لأوراقه ثم نادي على شاهد الإثبات النقيب حسام صلاح الذي قام من مكانه يحلف قسم الشهادة ثم يتحدث بعدها قائلا « منذ أكثر من خمسة أشهر تلقينا عدة بلاغات من أحدي القرى النائية بصعيد مصر تفيد باختفاء بعض من سكان القرية وبعد إصدار أمر التكليف لنا بالذهاب لذلك المكان أتضح لنا أن أغلب البلاغات كاذبة وهذا مثبت في التقرير الذي قدمته لرؤسائي بالعمل لكن بعد مراقبة المكان أتضح لنا أن تلك القرية كانت قد خلت من أهلها وعددهم عشرة أسر ولم نعرف السبب إلا بعد وقوع الحادث

وهو أن اغلبهم كان في زيارات خارج القرية لأقاربهم وذويهم خاصة أنها تزامنت مع فترة الأعياد، في نفس التوقيت كانت هناك حركة غريبة في منزل كبيرة القرية المدعوة شفاعة وهي أحد ضحايا المتهم فتمت مراقبتهم حتى ليلة الحادثة فأبلغني زميلي الشهيد شريف بأن هناك شاب يقوم بذبح شيء على باب المنزل فحين دققنا النظر وجدنا أنه يذبح طفلة صغيرة وهي مريم عبد الرسول أخته بالتبني فأمرت شريف بأن يذهب الى المنزل وكنت أحاول الاتصال بقوة الشرطة لكي تأتي ولما أتوا كان أدم قد قام بفعلته وقتل كل من بالمنزل والذي أتضح أنهم عائلته جميعا.

نظر القاضي لعين حسام قائلا « أمتأكد أنت أنك شاهدته يقتل أم بنيت كلامك على كلام زميلك؟».

نظر حسام للقاضي قائلا « نعم يا سيادة القاضي لأني شاهدته ينحر عنق زميلي لكني لم أكن على مقربة منه لذلك لم أستطع القيام بنجدته الى جانب التقرير المفصل الذي تم تسليمه لرؤسائي بالعمل وإرفاقه مع أوراق القضية أمام عدالتكم».

قام القاضي بالإشارة لحسام بالجلوس ثم نظر للمحامي قائلا « دفاع المتهم يتفضل بتقديم مرافعته».

نظر أدم للقاضي في انكسار قائلا « أريد أن أتكلم يا سيادة

القاضي فالمحامي المعين من قبلكم لن يستطيع فهمي فأنا بريء يا سيادة القاضي لم أقتل عائلتي، ابحثوا عن عبادة فهو الوحيد الذي يعلم بحقيقة الأمر كله فكل ما أنا فيه كان لعبة من والدي وأشقائه من أجل أن أفتح لهم باب مدينة الحاكم الصارم الفرعوني ويحصلوا على ميراثهم منها، لقد قدموا مريم قربان للشيخ السماوي من أجل أن يحصلوا على مرادهم و............».

قاطعه ممثل الادعاء قائلا « يا سيادة القاضي المتهم لا يريد الاعتراف بجريمته بل يريد أن يضلل عدالة المحكمة بأكاذيب وخرافات طمعا في الحصول على حكما مخففا و.........».

قاطعه القاضي بحدة قائلا « أن عدالة المحكمة لا تأخذ بالكلمات بل لها من الأدلة والبراهين لتقضي بحكمها فيه، إذن الحكم بعد المداولة».

بعد ساعتين وأكثر خرج القاضي قائلا « بعد الاطلاع على الأوراق في القضية رقم ٥٠٤٠ لسنة ٢٠١٠ المعروفة ب (سفاح قرية الخير) ضد المتهم أدم محمود موسى بتهمة القتل الجماعي لعائلته ولضابط الشرطة شريف منتصر حكمت المحكمة حضوريا وبإجماع الآراء بمعاقبة المتهم أدم محمود موسى بالإعدام شنقا رفعت الجلسة».

وقف حسام أمام القفص ينظر لأدم مبتسما الذي بدا عليه الانكسار فقال له بصوت منخفض لا يلاحظه أحد «سألقاك قريبا»، ثم تركه ورحل.

***

- اليوم هو الثلاثاء مر أكثر من أسبوع على محاكمتي أجلس في زنزانة انفرادية مشددة الحراسة أنتظر موتي في أي لحظة، شريط حياتي يمر سريعا من أمامي ومازلت أجهل ما ذنبي في كل تلك الحكاية فأنا لم أرغب سوي في حياة هادئة كباقي البشر من حولي، الوقت يمر ببطء شديد تتسارع دقات قلبي حين أسمع خطوات بالقرب من زنزانتي حتى دخل على أحد الحراس حاملا حقيبة بلاستيكيا تفوح منه رائحة الطعام فلما سألته عن تلك الحقيبة أخبرني بأن أحدهم أرسل لي ذلك الطعام فتركه لي على الأرض لم أكن أريد الأكل لكن رائحة الطعام جعلت لعابي يسيل فقمت بفتح الحقيبة وبدأت بالتهام الطعام ، دقائق معدودة حتى غبت عن الوعي تماما، وجدت من ينادي باسمي يحاول إيقاظي فقمت بصعوبة بالغة أحاول استجماع شتات نفسي مازالت الرؤية مشوشة بعض الشيء دقائق مرت حتى وجدت نفسي نائما على سرير في غرفة بأحد المنازل حاولت النهوض لكن جسدي لم يساعدني بالقدر الكافي فنظرت حولي لأجد عبادة

يجلس على طرف السرير وحسام خلفه يجلس على كرسي خشبي، كان التوقيت بالمساء أسمع صوت أمواج في أذني فحاولت النهوض مرة أخري لكن تلك المرة وجدت عبادة يساعدني حتى نهضت لكن تلك المرة فزعا فلقد بدأ الإدراك والوعي في الاكتمال حين اتضحت الرؤية أمامي.

كان حسام جالسا يدخن سيجارته قائلا « أتعلم يا أدم كم كلفني خروجك من السجن الكثير من الأموال التي أخذها مني التربي لاستبدال جثتك الي جانب عامل المشرحة لتبديلها الى طبيب الشرعي الذي أعلن عن وفاتك لتنتهي قصة سفاح قرية الخير ويرجع الرأي العام مرة أخري لسكناته لينشغلوا بموضوع أخر».

نظرت له بتعجب لكن الإنهاك كان واضحا على معالمي فقلت « أين أنا وكيف أتيت الى هنا؟ « أمسكت رأسي من الصداع الذي أصابني ثم أكملت حديثي قائلا « عبادة والضابط لا أفهم شيء أليس المفروض أن أكون في انتظار حكم الإعدام بزنزانتي أخر ما أتذكره ذلك الطعام الذي جاءني فأكلته ثم غبت عن الوعي».

نظر لي عبادة مبتسما قائلا «دعني أشرح لك الأمر بالتفصيل حتى لا نطيل الحديث فأمامك أربع ساعات على مغادرة مصر للأبد، منذ عقدا من الزمان كنت شابا صغيرا

يافعا أعيش في كنف الغجر أتنقل معهم من مكان لأخر أتعلم من دليلة العرافة أصول السحر وتوابعه حتى اختفت لفترة ثم عاودت الظهور ، عرفت وقتها أنها تعيش في قرية الخير بعد أن وضعت وليدها مسعود فكنت أزورها بين الحين والاخر حتى جاءت لي في يوم قائلة أن حاكم تلك القرية موسى الرحال ينقب عن الآثار ويبيعها للخارج عن طريق وسطاء فكان الأمر طبيعيا للغاية خاصة أنه كان يعتمد عليها، في يوم من الأيام كنت في زيارة لها فأخبرتني بأن موسى يبحث عن مدينة الحاكم الفرعوني الصارم التي دفنت تحت أحد القرى، بعد بحث واستقصاء علموا بأن تلك المدينة تحت قريتهم لكن تنقصهم خريطة المكان لهذا كانت دليلة تفتح لهم أبواب السحر فهي عرافة الغجر بيدها تستطيع أن تحول كل شيء ونقيضه خاصة بعد أن عرفت عزم موسى فتح تلك المدينة لهذا قررت أن تستعين بي حتى وصلنا لخريطة المكان التي احتفظت بها معي لكنها كان ذكائها شديد فقررت أن توهم موسى ومن معه بتلك الخرافة التي تدعي الشيخ السماوي وقدرتها على التواصل معه وأقناعه بعقد معاهدة معه للوصول للمنشود، لهذا كان موسى يثق بها بشدة حتى حذره بعض أتباعه منها لكنه لم ينساق وراء كلامهم فبدأت دليلة خطتها والتخلص من كل أتباعه وهذا ما حدث بالفعل بل طلبت منى في أحد الزيارات أن أتي لها

بحجاب الحظ الذي كانت تخطه بيدها لتقنع من أمامها بأنها تستطيع جلب السعادة أو إيذاء شخص على حسب رغبة المشتري وقامت بعمل أكثر من صندوق ودفنه في العديد من الأماكن المتفرقة بالقرية من أجل هدف ما، في أخر زيارة لي أخبرتني بنية موسى للغدر بها بعد أن قررت أن تطالب بحقها في الكنز حينها راودتني فكرة أن تجعلني أنا الوسيط بدون سبب حتى أستطيع أن أدخل وسطهم خاصة بعد خرق موسى للمعاهدة، في فترة ليست ببعيدة عرفت أن دليلة قد قتلت على يد موسى وأبنته لهذا قررت أن أستولي على ذلك الكنز وأقضي نهائيا على ذلك الشيطان ونسله، حينها أقنعتهم بأني وسيط بينهم وبين السماوي ومن هنا بدأت الخطة كل خطوة وتفصيلة كانت مدروسة حتى وصلنا لما نحن فيه الآن».

نظرت لهما ومازالت علامات الدهشة تعتليني فقلت لهم « لكن كيف أقنعتهم بل وأقنعتني بوجود السماوي فلقد رأيته بالفعل؟».

نظر لي عبادة قائلا «أنه ذلك البخور الذي أتيت به من الخارج وأقنعتهم جميعا بأنه وجب استعماله طوال الأربعة وعشرون ساعة فكان يسبب حالة من التخدير العقلي طويل المدى وعلى أساسها كنت أتحرك وأقنعكم جميعا بأن

السماوي موجود بالفعل».

نظرت لحسام قائلا « وما علاقتك بعبادة وهل تظنون أن ذلك الأمر يستحق كل تلك المدة حتى تدخلوا المدينة؟».

نهض حسام من مقعده قائلا « كان مقر خدمتي كشرطي حديث التعيين في أحد الأقسام بمنطقة شعبية وفي يوم ورد إلينا خبر عن طريق أحد مخبرينا بوجود حفر بداخل أحد المنازل بحثا عن الآثار، تحركنا بالقوة وتم القبض على عبادة في موقع التنقيب لكننا لم نجد أي شيء وقتها فأخلينا سبيله بعد أسبوع كامل من التحقيقات التي لم تسفر عن شيء، شعرت بأن عبادة ورائه سرا خطيرا ولا تسألني لماذا ذلك الإحساس؟ فبدأت في البحث ورائه فعلمت أنه من الدجالين الذين يستعينون بهم لفتح المقابر الفرعونية فوضعته تحت المراقبة حينها علمت من أحد المصادر بأنه بصدد فتح أحد المقابر فتتبعته وحدي بدون أي قوة أو إذن رسمي من الجهات المعنية لمداهمة المكان فهالني ما رأيت، أحد المقابر الفرعونية المليئة بالآثار والذهب الذي لمع في عيني وقتها وجدت عبادة معه خمسة عمال يقفون بداخل المقبرة حولهم كل تلك الكنوز، لا أنكر أن للمعة الذهب بريق خاص فوجدت نفسي أقتل العمال وقتها ناظرا الى عبادة الذي تملكه الرعب مني لكنه علم غايتي حين التقطت أحد

قطع الذهب ولهذا صار بيننا علاقة مشتركة، بعدها بأسبوع قص لي عبادة عن مدينة الحاكم الصارم وأنه يحتاج لدعمي ولهذا أنا هنا، لا أخفيك أمرا يا أدم لا أعلم لما كل تلك المدة في انتظار فتح باب المدينة لكني أيقنت أن الصبر دائما يأتي ببشرى عظيمة».

عقلي لا يستوعب ذلك الكلام فلقد اكتفيت من تلك الأمور التي أحالت حياتي للجحيم لينتهي بي المطاف محكوم عليه بالموت، نظرت لعبادة قائلا « ماذا عن البقية من والداي وعائلته وفريدة وأحمد؟».

حينها ضحك عبادة بشدة قائلا «جميعهم لم يختلفوا عن بعض في شيء سوي في درجات الطمع ودعني أخبرك بكل واحدا فيهم، والدك محمود ذلك القروي الساذج الذي خانته حساباته البحث عن مفتاح المدينة فصار على نهج خطة شفاعة لكن في مكان مختلف ، أما شفاعة فقد كانت مثالا للجهل الأبدي من فتاة طائشة قاتلة تشبعت بكل ما أخذته من والدها من قسوة وظلم وقوة مفرطة فصارت على نهجه في الكشف عن كواليس مدينة الحاكم الصارم فأصبح شاغلها الوحيد هو الوصول لها طبقا لتلك المعاهدة الزائفة بينهم وبين الشيخ السماوي المتمثل في أنا كوسيط فكانت كتلميذ نجيب يسمع كلام أستاذه بالحرف وهذا ما

فعلته معها حتى وصل الأمر بأن تقتل بلا رحمة أي شخص يقف في طريقها فأشركتها في الكثير من عمليات التنقيب عن الآثار بل زودتها برجال الرحالة الذي بقي منهم تلك المجموعة الذين قتلوا على يد بعضهم طمعا في الحصول على الذهب، أما باقي أشقاء والدك فلا ضررا أو ضرار منهم ، أما والدتك فكانت مسكينة وقعت في براثن خطة شيطانية لوالدك فأقنعها بأن تسير على نهجه وكما قالوا من الحب ما قتل أنتهي بها الأمر كما رأيت قتيلة بلا ذنب وتلك المسكينة الصغيرة مريم التي لم تقترف في الدنيا شيء تستحق الموت من أجله ، أما........».

قاطعه حسام بابتسامة سخرية قائلا « أما أحمد وفريدة فكانا تشكيل يدي واقتراحي على عبادة، أحمد شاب يافع مثلك لكن عقله في عضلات جسده شهواني لأقصي درجة محبا للمال فلم يكن من الصعب أن يغريه وجود فتاة كفريدة في حياته مع وافر من المال ليضمن مستقبله، أما فريدة فكانت فتاة ليل تم ضبطها في أحدي الشبكات المنافية للآداب فاستخدمناها كطعم لشفاعة حين أقنعها الوسيط أو عبادة بمعني أصح بأنها أبنتها من مسعود بعد أن حملت بها وتركها لها، حينها أرسلت عبادة لأحمد على حسب الخطة المتفق عليها بأن يقنعه أن يتعاون معنا في سبيل شهوته فلم يستطع مقاومة إغراء فريدة والمال فأحرق بيته

وقتل والديه في سبيل غايته وقد أنتهي به المطاف قتيلا لشهواته ، يا صديقي أدم أن الإنسان خلق بشهواته فمنهم من يتحكم بها ومنهم من تحكمه والنتيجة محصودة».

كلماتهم كالرصاص تخترق جسدي أصبح الوضع أكثر جنونا لكني شعرت ببعض من الراحة حين انكشفت الأوراق، نظرت لعبادة قائلا « وماذا بعد؟».

ضحك عبادة قائلا « قبل ليلة المراسم كنت قد أرسلت رسالة ورقية لشفاعة أخبرها بأن تتخلص من أتباعها من الرحالة حتى يتثنى لها الانفراد بك بعد فتح البوابة وكانت تلميذة مطيعة فتخلصت وقتها من أتباعها، تتبعتها برسالة أخري أخبرها فيها بأن تتخلص من أشقائها جميعا وهو بالفعل ما قام به حراسي العشرة المأجورين على حسب ما اتفقنا عليه حين تدخلون المقبرة وقام حسام بقتل شريكه وبضربك على رأسك وأخذ محتويات المدينة بالكامل بعدها تخلص حسام من تلك المقبرة بنسفها وقمنا بنقلك والجثث لبيت شفاعة وتلك هي النهاية التي ألت بك لهنا».

نظرت لهم بحدة واضحة وبصوت غاضب قلت لهم « لماذا أنا؟، ماذا فعلت للجميع حتى أكون في تلك المسرحية الهزلية ؟».

تقدم حسام ببعض الخطوات الثابتة أمامي قائلا « لا ذنب

لك سوي أنك من نسل محمود ابن موسى، أما الآن فقد حان وقت لكي تأخذ نصيبك وتذهب لرحلتك الأخيرة». حينها أخرج مسدسه ليصوبه نحوي.

صرخ عبادة عليه قائلا «ماذا تفعل يا حسام؟ هذا ليس اتفاقنا!».

نظر حسام له وهو مازال مصوبا لمسدسه نحوي قائلا «لا عهد أو أتفاق بيننا فلقد ضحيت بكل ما أملك من أجل تلك اللحظة وتريدني أن اقتسمها مع ذلك الوغد يكفي ما فعلته له حين أعطيته فرصة أخري للحياة فسحقا لك فإن حكم الأمر سأقتلك أنت أيضا».

نظراتهم لبعض توحي بمعركة شديدة أنهيتها حين قلت لهم «ما الموت إلا بداية لحياة جديدة في مملكة العدل الدائم وليست في دنيا زائلة، جميعكم تتقاتلون من أجل حياتي مقابل المال يا لخيبة الأمل، لكن لا ألومكم فجميعكم وقعتم تحت شهوات الدنيا وملذاتها فأصبحنا في غابة القوي يأكل الضعيف فيها لهذا أن كنت تريد قتلي يا حسام فلتقتلني فليس لدي سبب أعيش من أجله لكن لتعلم أن لقائنا سيكون قريبا فصاحب العهد لا يموت».

تمت بحمد الله....